المكتبة القبطية على الانترنت
http://copticlibrary.110mb.com

البابا شنوده الثالث

تأملات في العظة على الجبل

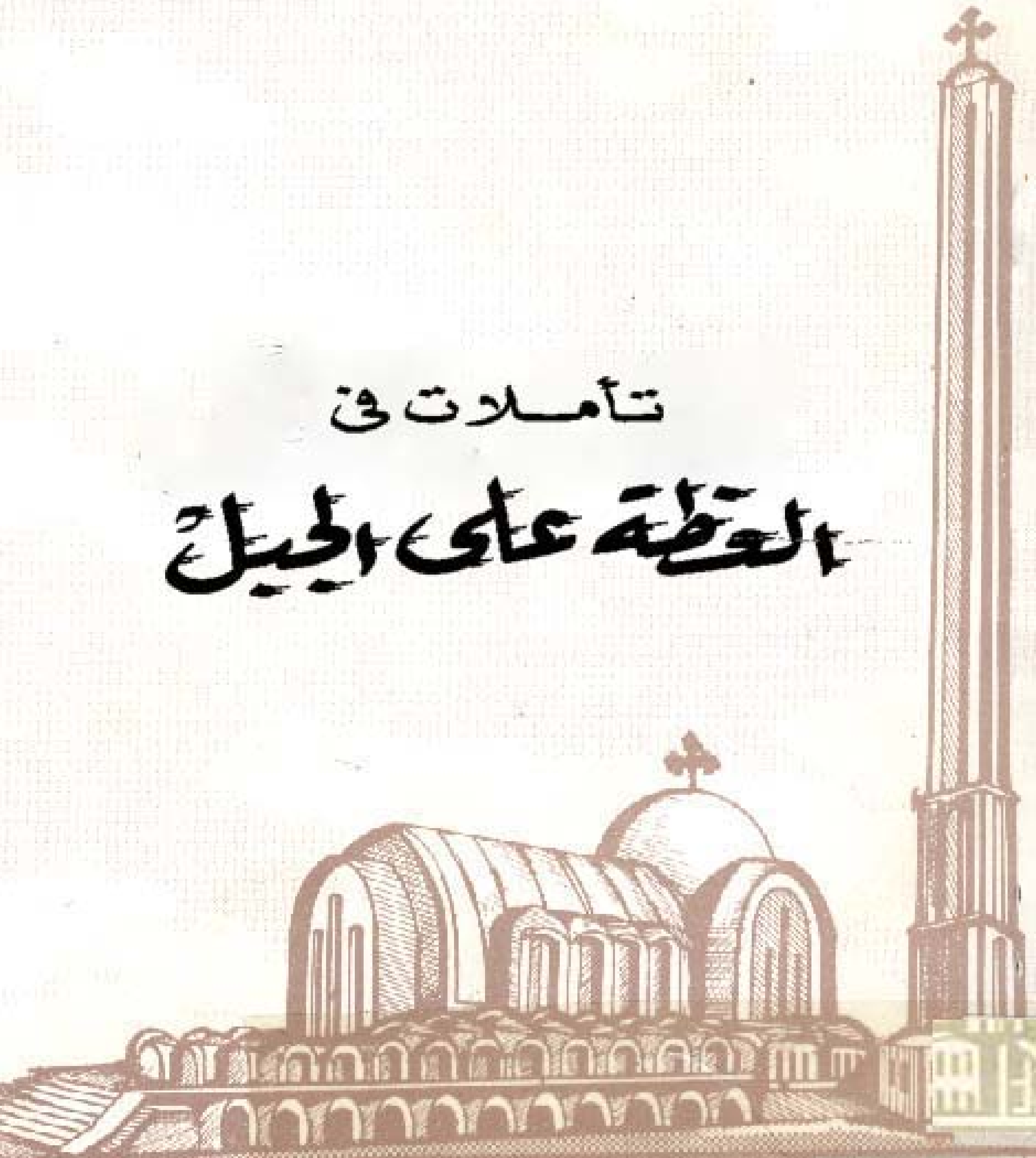

البابا شنوده الثالث

تأملات في الموعظة على الجبل

Contemplations on The Sermon On The Mount

By H.H. Pope Shenouda III

3rd Print

Dec. 1996

الطبعة الثالثة

ديسمبر ١٩٩٦

القاهرة

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

قصة هذا الكتاب

إنه ثمرة ١٦ محاضرة ألقيتها حينما كنت أسقفاً للتعليم ، عن [العظة على الجبل] أو بالحرى عن جزء بسيط منها ... وكان ذلك فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس ، وفى فناء الكلية الإكليريكية ، حينما ضاقت القاعة عن إتساع الإجتماع ، وضاق غيرها ...

ألقيت هذه المحاضرات فى الفترة ما بين يوم الجمعة ٣٠ / ٦ / ١٩٦٧ ، ويوم الجمعة ١٣ / ١٠ / ١٩٦٧ . وفى ذلك الوقت كان العمل جارياً فى وضع أساسات الكاتدرائية الكبرى ، التى بدأت محاضراتنا فيها من أواخر فبراير سنة ١٩٦٩ م .

يشمل هذا الكتاب التطويبات ، وقول الرب : « أنتم ملح الأرض ... أنتم نور العالم .. » وأحب أن أقف عند هذا الحد فى الجزء الأول من تأملاتنا فى العظة على الجبل ، لكى يبدأ الجزء الثانى بقول الرب : « ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

وقد عدت للتأمل فى هذه الموضوعات معكم فى أيام الأربعاء . ولعل الله يساعدنى أن أنشرها لكم حينما تكمل ، إن شاء الرب وعشنا .

شنوده الثالث

مقدمة الجبل

العظة على الجبل - كما يقول البعض - هى دستور المسيحية. بل هى أسمى تعاليم عرفتها البشرية. والسيد المسيح خاطب بها جميع الناس، مما يدل على أن الكمال يمكن تقديمه للكل، وأن فى قلب كل إنسان استعداداً لأن يسمع أعمق المبادىء والقيم، ويحبها ويقتنع بها، مهما كانت الإرادة تقف عائقاً أحياناً...

وهذه التعاليم العالية، كان يليق أن تقال على جبل عال. لكى فيما يرتفعون صاعدين بأجسادهم إلى الجبل، تكون أرواحهم مستعدة أيضاً أن تصعد إلى المستوى الذى تفهم فيه هذه التعاليم. كما أن الذى يصعد الجبل، يرى تحته العالم ضئيلاً...

ولا ننسى أيضاً أن شريعة العهد القديم أعطيت من على جبل، رأى فيه الناس علو الله وعظمته وهيبته.

فكان مناسباً أن شريعة العهد الجديد يقدمها الرب إلى الناس من على جبل، يذكرهم بجبل الشريعة.

وقد قارن القديس بولس الرسول بين الجبلين فى رسالته إلى العبرانيين فقال: «لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار، وإلى ضباب وظلام وزوبعة، وهتاف بوق وصوت كلمات استعفى الذين سمعوه أن تزاد لهم كلمة ... بل قد أتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحى أورشليم السمائية ... وإلى وسيط العهد الجديد يسوع ...» (عب ١٢ : ١٨-٢٤).

أعطيت شريعة العهد القديم فى خوف، حتى قال موسى النبى أنا مرتعب ومرتعد (عب ١٢ : ٢١) بعكس العهد الجديد:

إذ تكلم السيد المسيح فى وداعة . وكان تطويب الوداعة فى مقدمة تطويباته . ولم يرتعب الناس من نار ولا من ضباب ولا من زلزلة . ولم يحتاجوا إلى وسيط كموسى ينقل إليهم كلام الرب . بل كان الرب فى وسط أولاده ، يكلمهم فى حب كأب ..

وكان يتكلم بتأثير شديد عليهم حتى قيل : « بهتت الجموع من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمَن له سلطان وليس كالكتبة » (مت ٧ : ٢٩) .

وحسن أن السيد المسيح قد كلمهم من على جبل ، إذ لا يوجد هناك ما يشغل حواسهم ، فيتركز تفكيرهم فيما يقوله الرب لهم ..

كلمهم هناك بعيداً عن كل المعوقات ، وبعيداً عن بهجة المدينة وملاهيها ومتعها وزحامها ومشاغلها . حيث لا يجذبهم عنه شيء من مهام العمل أو البيت أو ألوان المسليات المتنوعة . إنما هنا الرب وحده . فلا يعطلهم شيء من جهة الحس أو من جهة الفكر . وصدق مار إسحق حينما قال :

إن مجرد نظر القفر يميت من القلب الحركات العالمية .

وهكذا كان يأخذهم الرب أحياناً إلى موضع قفر أو موضع خلاء (لو ٩ : ١٠) ، وأحياناً إلى شاطىء البحر ، أو شاطىء البحيرة . المهم أن يبعدوا عن أمور العالم والمادة لكى يتفرغوا له ، كما دعا إبرام من قبل ، بعيداً عن أرضه وعشيرته وبيت أبيه (تك ١٢ : ١) .

وجميل أن الجموع تبعت المسيح إلى الجبل ...

كانت جاذبيته قد شدت الكل : شخصيته ، وتعاليمه ، وشهادة المعمدان له من قبل ، وأحاديث تلاميذه الذين تبعوه ، وبعض معجزاته ... وظلت شخصية المسيح لها طابع «رجل الجماهير» إلى حين صلبه . تتبعه الآلاف باستمرار ، ويحيطه الزحام فى كل مكان . حتى قال عنه شيوخ الشعب **«هوذا العالم قد ذهب وراءه»(يو١٢ : ١٩)** . وقيل عنه أيضاً : **«الشعب كله كان متعلقاً به» (لو١٩ : ٤٨)** .

لقد أخذهم الجبل ، كما أخذ موسى من قبل إلى الجبل .

وقد عاش إيليا من قبل حياة الجبل ، جبل الكرمل ، وكذلك اليشع و بنو الأنبياء . و يوحنا المعمدان أيضاً كان رجل البرارى ، عاش كإيليا فى البرية... و يعوزنا الوقت إن تحدثنا عن الجبال والبرية فى حياة القديسين ، وكل مَن عاش حياة الصلاة والتأمل من الرهبان والسواح .

وكان للجبل مكانته فى حياة رب المجد نفسه .

منذ قيل عنه فى سفر نشيد الأناشيد : « هوذا آتٍ ، طافراً على الجبال ، قافزاً على التلال » (نش ٢ : ٨) .

قضى أربعين يوماً على الجبل ، فى صلاة ، بعد عماده .

و بعد حلول الروح القدس عليه بهيئة حمامة ، وقبل بدء خدمته ... كانت فترة اعتكاف وخلوة . ووضع أمامه فيها المبادىء الأساسية . الخاصة بمنهج خدمته . وكانت هذه المبادىء واضحة فى مواجهته للشيطان على هذا الجبل ، الذى عُرف باسم جبل التجربة .

ومن جبل التجربة ، إلى جبل العظة ، إلى جبل الزيتون .

وكان جبل الزيتون من الأماكن المحببة إليه . وكان موضع خلوته الذى يتردد عليه باستمرار، يقضى الوقت فى تأمل وصلاة ، فى صلة عميقة بالآب . وما أجمل ما قيل عنه فى إنجيل يوحنا :

« فمضى كل واحد إلى بيته . أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون » (يو ٧ : ٥٣ ؛ ٨ : ١) .

وكان بستان جثسيمانى ، من أماكن خلوته المحببة . وفيه قضى وقت صراعه الروحى لأجلنا ، قبل القبض عليه مباشرة . وقبل أن يمضى إلى جبل آخر، فى رحلته إلى الصليب «طافراً على الجبال» .

ذلك هو جبل الجلجثة ، الذى سجل الرب فيه أعظم قصة حب وبذل ، لأجل خلاص العالم .

على هذا الجبل سفك دمه . وعلى هذا الجبل قال كلماته السبع المشهورة على الصليب . وعليه غفر للص اليمين ، كما غفر للبشرية جمعاء . إنه جبل الألم ، والحب .

وقد سبقه جبل آخر، أعطانا الرب فيه صورة من مجده ، حتى تقوى إيمان الناس وقت صلبه .

كان ذلك على جبل طابور ، جبل التجلى (مر ٩ : ٢ ، ٣) .

وقيل إن ذلك حدث على جبل عال . وفيه ظهر معه موسى وإيليا ، وهما أيضاً من رجال الجبل والبرية . وعلى هذا الجبل أيضاً شهد له الآب قائلاً : «هذا هو إبنى الحبيب . له اسمعوا» (مر ٩ : ٧) .

أما جبل الصعود ، وهو أحد جبال مجده ، فيقال إنه جبل الزيتون (أع ١ : ٩ ، ١٢) .

وأمام محبة المسيح للجبال ، لم يكن غريباً أن يلقى عظته المشهورة هذه على الجبل ... وان يقول عنه متى الإنجيلى : «ولما أبصر الجموع صعد الجبل ... وفتح فمه وخاطبهم قائلاً ...» (مت ٥ : ١ ، ٢) .

وكان الناس على الجبل ، لا يرون سوى السماء من فوق ، لا يعوقها عائق من بناء ... والافق الممتد أمامهم فى اللانهائية .

ومع السماء ، واللانهائية ، والبعد عن المادية ، استمع إلى صوت الرب الذى فتح فاه وخاطبهم .

• فتح فاه :

لعل البعض يسأل : ما معنى عبارة فتح فاه ؟

قال القديس أوغسطينوس : إن السيد المسيح فتح فاه فى هذه المرة ، لأنه فى المرات السابقة كان يفتح أفواه الأنبياء ، لكى يكلموا الناس ... لهذا **قال معلمنا**

القديس بولس الرسول : «الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء ... كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه» (عب ١ : ١ ، ٢)..

أى أنه فى العظة على الجبل وغيرها ، لم يكلمنا عن طريق الأنبياء ، إنما فتح فاه وخاطبنا .

ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم : إن المسيح فتح فاه وكلمهم ، لأنه فى كل السنوات السابقة كان يكلمهم و يعلمهم بالقدوة دون أن يفتح فاه بالتعليم .

• ملاحظات على محتويات العظة :

١ ـ تكاد العظة على الجبل أن تكون رداً ضمنياً على الذين يعلّمون بالإيمان وحده قائلين : «آمن فقط» ...

فكل العظة على الجبل عبارة عن سلوكيات روحية . ولم ترد فيها كلمة واحدة عن الإيمان !

فهى حديث عن الفضائل العظمى ، ونقاوة القلب ، والقدوة الحسنة ، والمعاملات مع الناس ، والصلاة والصوم ، والمفهوم السليم لوصايا العهد القديم ... وتختم بالثمر الروحى (أى الأعمال) وبعبارة «مَن يسمع أقوالى و يعمل بها..» (مت ٧ : ١٦ ، ٢٤) .

٢ ـ السيد كلم الناس عن الحياة العملية ، وليس عن الطقوس وعن الممارسات والعادات التى كان يتحدث عنها معلمو الناموس بين اليهود . ودخل بهذا الكلام إلى العمق ، إلى القلب .

٣ ـ أيضاً تحدث عن الكمال ، وهو يكلم جميع المستويات :

وهو يكلم الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، وكل المستويات الروحية ، وكل مستويات السن ... إنه يعرض عليهم ما ينبغى أن يكون ، و يصعد بهم إلى قمم السمو. وكل إنسان يتصرف حسبما يمكنه ، وحسبما تكون له من نعمة ... ولم يدعهم يقفون

عند حد معين فى الطريق الروحى، بل قال لهم: «فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (مت ٥ : ٤٨).

٤ ـ وفى العظة على الجبل، قدم الله كأب سماوى :

وكرر عبارة « أبوكم السماوى » ومترادفاتها مرات عديدة.. حوالى ١١ مرة. كما علم الناس أن يصلوا قائلين: «يا أبانا الذى فى السموات». وهنا تأكيد على مفهوم الحب بين الله والناس.

٥ ـ كذلك كرر عبارة « الملكوت » و« السموات » كثيراً.

وبهذا نقلهم من اشتهاء ملك أرضى يدعو إليه اليهود، إلى ملكوت سماوى فوق مستوى العالم والمادة.

٦ ـ ولم يتملق مشاعر الناس، ومحبتهم للعظمة ...

لم يتحدث إليهم كمَن يريد أن يخلصهم من عبودية الرومان. بل قال: «مَن سخرك ميلاً، فامش معه ميلين» «مَن أراد أن يخاصمك و يأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً» «لا تقاوموا الشر» (مت ٥ : ٣٩-٤١).

إنه يريد لهم النقاوة الداخلية، وليس العظمة الخارجية.

أيها السيد الرب : مَن سيتحمس لك عندما تقول «طوبى للمساكين» أو حينما تقول «حول الخد الآخر» و«لا تقاوموا الشر»؟

ولعله يقول : لم آت ليتحمس لى أحد... إنما لكى اطهر هذه القلوب، حتى لو صلبتنى... لذلك لا مانع مطلقاً من أن أبدأ حديثى معهم بعبارة:

« طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات .. ».

نتكلم فى هذا المقال عن أولى التطويبات فى العظة على الجبل ، وهى :

⊙ طوبى للمساكين بالروح ⊙

• التطـويبات :

بدأ السيد المسيح عظته بالتطويبات التسع...

وكلمة طوبى تعنى السعادة والبركة معاً وليست واحدة منهما فقط ، كما تفعل بعض الترجمات الحديثة ، فتحذف نصف المعنى .

بعض الترجمات الإنجليزية تترجمها Blessed والبعض تترجمها Happy والمفهوم السليم يجمع المعنين معاً : السعادة التى هى نتيجة للبركة . والبركة التى تحمل فى داخلها السعادة .

وهنا السيد المسيح يشرح للناس طريق السعادة والبركة .

إن الله يريد السعادة لأولاده . ويبدأ العظة بشيء مفرح : تعالوا يا أولادى لأفتح لكم أبواب السعادة والبركة . فالإنجيل هو بشارة مفرحة . والملاك الذى بشر بميلاد المسيح ، قال للرعاة : « ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب » (لو ٢ : ١٠) .

ولكن الناس يختلفون فى معنى السعادة والبركة . لذلك جلس السيد المسيح على الجبل يشرح المعنى السليم للطوبى .

يشرح الطوبى بمفهوم جديد ، روحى ... غير مفهوم المجتمع وقتذاك ، سواء من الرومان أو من اليهود .

فالرومان فى سلطة حكمهم ، وفى كل ما تحيط بهم من فخامة وعظمة ، ما كانوا يقبلون أن يكون طريق السعادة هو المسكنة بالروح ! ولا اليهود المشتاقون إلى التخلص من عبودية الرومان، كانوا يقبلون أن يكون طريق البركة هو المسكنة . فالبركة التى منحت لإبراهيم ، كانت السعة فى الأرض ، والكثرة فى الأولاد ، والوفرة فى الخيرات .

ولم يباركة الله ولا ابناءه بالمسكنة ... بل بأرض تفيض لبناً وعسلاً (خر ٣ : ٨) . وهكذا كانت البركة التى تتلى على الشعب من فوق جبل جرزيم (تث ٢٧ : ١١) والتى يقال فيها : « يأمر لك الرب بالبركة فى خزائنك ، وفى كل ما تمتد إليه يدك ، و يباركك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك » (تث ٢٨ : ٨) .

ولكن السيد هنا يشرح بركات الروح ، لا البركة المادية .

كانت البركة المادية فى العهد القديم ، رمزاً للبركات الروحية التى فى العهد الجديد . والمفروض أن يصل الشعب إلى النضج الروحى الذى يفهم فيه البركة روحياً ... وفى مقدمة هذه البركة : المسكنة بالروح .

كانت المسكنة بالروح تحمل تخلصاً من خطية آدم وخطية الشيطان .

الشيطان أراد أن يكبر ، وقال : « أصير مثل العلىّ » (إش ١٤ : ١٤) . و بنفس الخطية أغرى أبوينا الأولين : « تصيران مثل الله .. » (تك ٣ : ٥) . وإذ فقدا المسكنة بالروح ، فقدا أيضاً صورتهما الإلهية ، وفقدا الفردوس . وجاء المسيح يعيدهما إلى رتبتهما الأولى ، مصححاً الخطية الأولى ، بقوله : « طوبى للمساكين بالروح ... » .

إن الله الذى أخلى ذاته وأخذ شكل العبد (فى ٢ : ٧) لا يحب الكبرياء ، بل قيل إنه يقاوم المستكبرين (يع ٤ : ٦) .

« وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة » . لهذا قال فى سفر إشعياء : « إلى هذا انظر : إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامى » (إش ٦٦ : ٢) . وقال داود النبى : « مَن مثل الرب إلهنا ، الساكن فى الأعالى ، والناظر إلى المتواضعات ... المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المزبلة ، لكى يجلس مع أشراف أشراف شعبه « رؤساء شعبه » (مز ١١٢) .

والمسكنة بالروح خط واضح صريح فى تسبحة العذراء :

فتقول : « نظر إلى اتضاع أمته ... شتت المستكبرين بفكر قلوبهم . أنزل الأعزاء عن الكراسى ، ورفع المتضعين » (لو١ : ٤٨-٥٢) .

وهى أيضاً خط واضح فى حياة داود وفى مزاميره .

إنه يتحدث كثيراً عن مسكنته وحاجته إلى الله ، وباستمرار يطلب منه المعونة والنصرة . انظروا كيف يقول للرب ؟ « أما أنا فمسكين وفقير. اللهم أعنى . أنت معينى ومخلصى يارب ، فلا تبطىء » (مز٦٩) .

يقول هذا : داود الملك العظيم ، والقائد ، والنبى ، والقاضى .

الرجل الذى كان يسجد أمامه عظماء وأنبياء وملكات . ويرتعش من هيبته ملوك . ولكنه أمام الله مسكين وفقير. يقول له : « أمل يارب أذنك واستمعنى ، لأنى مسكين وبائس أنا » (مز٨٥) .

إنه على الرغم من عظمته أمام الناس ، هو مسكين أمام نفسه ، ومسكين أمام الله ، ومسكين فى حروبه الروحية !

والتاريخ المقدس يعطى أمثلة من المساكين المحبوبين من الله :

لعل أولهم كان **هابيل البار** الذى كان مسكيناً أمام أخيه قايين الجبار أول قاتل على الأرض . وقد وقف الله إلى جوار هابيل يدافع عنه بعد موته ، ويدين قاتله بأول لعنة أصابت أحداً من البشر (تك ٤ : ١١) .

وبنفس الوضع وقف الله مع **يعقوب** الذى كان مسكيناً إذا قورن بأخيه عيسو ، الذى قال « أقتل يعقوب أخى » (تك٢٧ : ٤١) . وبارك الله يعقوب ، وتجسد من نسله ، وانقذه من عيسو.

وكان الله مع يوسف ، الذى ألقاه اخوته فى بئر، وباعوه كعبد ، واتهمته امرأة فوطيفار ظلماً ، وألقى فى السجن وهو برىء . ولكن الله نصره على اخوته ، ورفع اسمه

جداً، وجعله أبا لفرعون، وثانياً له فى المملكة، وأعطاه نصيب سبطين فى الاثنى عشر.

إنه الرب الذى يقول: «من أجل شقاء المسكين، وتنهد البائسين، الآن أنا أقوم، أصنع الخلاص علانية». (مز ١١).

إن كنت مسكيناً، سيقف الله إلى جوارك. وإن كنت جباراً على غيرك، تضرب وتظلم بلا مخافة، فإن الله يقف ضدك، بينما يعطى الطوبى للمساكين...

كان الله مع لعازر المسكين، ولم يكن مع الغنى. لذلك قيل إن لعازر لما مات: «حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم» أما الغنى فمات ودفن، وكان يتعذب بينما لعازر يتعزى (لو١٦: ٢٢-٢٥).

وكان داود أيضاً مسكيناً بالنسبة إلى طغيان ابنه ابشالوم عليه، بخيانته له، وضمه الشعب إلى جانبه، ومحاربته لأبيه ... وأخيراً نصر الله داود الذى خرج حافياً مشرداً من وجه أبشالوم، يعيره شمعى بن جيرا فى الطريق ..

وكان داود مسكيناً أيضاً مع يوآب قائد الجيش!

ووقف الله أيضاً مع الابن الضال، الذى عاد فى مسكنة إلى بيت أبيه، يقول له: «لست مستحقاً أن ادعى لك إبناً»...

بينما أخوه الأكبر الذى فى كبرياء قلب، رفض الدخول إلى البيت، ورفض الاشتراك فى الوليمة فرحاً بأخيه، وفى كبرياء أدان الآب أيضاً..! هذا لم يكن مقبولاً. ولم يقل الكتاب إنه دخل إلى بيت الآب..

ووقف الله مع العشار المسكين، وليس مع الفريسى المتكبر.

وقال الكتاب عن العشار إنه رجع إلى بيته مبرراً دون ذلك الفريسى المحتقر له، الذى قال: «أشكرك يارب انى لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطفين الزناة، ولا مثل هذا العشار» (لو١٨: ١١، ١٤).

وقف الله مع اللص اليمين الذى قال : «نحن بعدل جوزينا» (لو٢٣ : ٤١) ، بينما هلك اللص الآخر الذى نسى خطاياه ، وكان يجدف بكبرياء ... !

وقف الرب أيضاً مع **الكنعانية** المسكينة ، التى قالت فى انسحاق قلب : «والكلاب أيضاً تأكل الفتات الساقط من مائدة أربابها» (مت ١٥ : ٢٧) . ورأى الرب فى مذلتها إيماناً لم يجده فى كل إسرائيل !

هكذا جاء الرب من أجل المساكين ، وقال فى ذلك :

روح الرب علىّ . لأنه مسحنى لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلوب . لأنادى للمسبيين بالعتق والمأسورين بالاطلاق» (إش ٦١ : ١) .

هؤلاء الذين من أجلهم جاء المسيح ، وليس من أجل المتكبرين أو المنتفخين ، أو الذين يظنون فى أنفسهم أنهم أبرار ! و يقارنون ...

كن إذن متواضعاً ، مسكيناً بالروح ، لأنه قريب هو الرب من المنسحقين بقلوبهم... وكن خادماً للجميع .

فى مرة أراد الشيطان أن يحارب أبا بالمجد الباطل . فسأله قائلاً : "مَن هم الخراف ، ومَن هم الجداء ؟" .

فأجاب القديس : [كل ما أعلمه أنى واحد من الجداء . والرب يعرف خرافه] ! فلم يحتمل الشيطان تواضعه ومضى ومنهزماً ...

• مقاييس المسكنة

فى العهد القديم ، كانت لهم مقاييس مختلفة . ما كان أحد من خلال تلك المقاييس ، يمكن أن يعتبر المسكين عظيماً ! ولكن المسيحية جاءت فغيرت المقاييس . ووقف السيد المسيح يقول : «طوبى للمساكين بالروح» .

وواضح جداً أن المسكنة بالروح ، هى غير المسكنة بالجسد ..

فربما يوجد إنسان مسكين بالجسد، فقير، مريض، محطم جسدياً ومتعب... وعلى الرغم من هذه المسكنة بالجسد، قد تكون روحه متعالية ومنتفخة! وفى طباعه عجرفة، على الرغم من جسده المحطم.

أما المسكين بالروح، فروحه مسكينة، أى انه متواضع ومنسحق. نفسه فى التراب والرماد مهما كان فى مركز كبير! لا يتعالى على غيره، ولا ينظر إليه من فوق، ولا يطلب أن يعامله الناس حسبما يستحق من تعظيم واحترام.

مثال ذلك، أبو الآباء إبراهيم ...

كان من أعظم أهل زمانه، وفى حرب كدر لعومر، انتصر على أربعة ملوك أقوياء. وردّ سبى سدوم وخرج لاستقباله ملك سدوم، وملكى صادق ملك ساليم.. (تك ١٤: ١٧، ١٨). ومع ذلك فإنه لما اشترى من بنى حث مغارة المكفيلة لدفن امرأته سارة، سجد أمامهم (تك ٢٣: ١٢) مع انهم كانوا يقولون له: «أنت رئيس من الله بيننا» (تك ٢٣: ٦). وكذلك لما زاره ثلاثة ضيوف مع أنه لم يكن يعرف شخصياتهم المقدسة «ركض لاستقبالهم، وسجد إلى الأرض» (تك ١٨: ٢) مع كونه شيخاً فى المائة من عمره. وكلمهم بأدب شديد «يا سيدى، مررتم على عبدكم» ... إنه إنسان متواضع، مسكين بالروح، لا يرتفع روحه مهما كان مركزه ...

داود النبى وهو ملك، يقول: «أما أنا فمسكين وفقير» (مز ٦٩).

التاج والعرش، وقيادة الجيش، وسجود الناس له، كل هذه لم ترفع قلبه إطلاقاً أمام الله. بل كان يبكى أمامه. و يقول: «ارحمنى يارب فإنى ضعيف» (مز ٦) ...

السيد المسيح إذن يريد بمسكنة الروح أن تكون غير متعالية. وعندئذ سوف يتبعها الجسد، و يكون حاله كحالها.

إذا انتفخت الروح ينتفخ الجسد، وإذا تعالت يتعالى معها:

ملامحه تبدو فيها الكبرياء، نظراته، شكله، حركاته، طريقة جلوسه، مشيه... نبرات صوته فيها التشامخ... طريقة كلامه، وحتى صمته أيضاً... كل هذا تظهر فيه

العظمة والشعور بالذات . وكما يقول المثل : "مناخيره فى السماء" . كبرياء الروح تولدت منها كبرياء فى الجسد ...

وبالعكس فإن المسكين بالروح ، تكون ملامحه وديعة ومتواضعة ... ونظراته منكسرة ومشيته هادئة ، وطريقة جلوسه بأدب ، وكلماته رقيقة ، وفى صوته الوداعة والسلام وكما يقال فى البستان [صوت ليّن ، ومشى هيّن] .

كل مسكنة بالروح لا بد تصحبها مسكنة بالجسد . ولكن ليست كل مسكنة بالجسد ، دليلاً على أن صاحبها مسكين بالروح .

ما صفات المسكين بالروح ، الذى له تطويب السيد المسيح ؟

إنه إنسان منسحق أمام نفسه فى الداخل ، ومنسحق أمام الله ، ومنسحق أمام الناس . وحتى أمام الشياطين أيضاً ، تراه بالمثل منسحقاً !!

مسكين أمام نفسه

المسكين أمام نفسه ، لا يكون عنده اعتداد بالذات ، ولا انتفاخ ، ولا يشعر أنه شىء . بل يرى نفسه خاطئاً وضعيفاً .

حتى ولو أخذ الناس عنه فكرة طيبة ، لا يصدقهم ، لانه فى داخله يعرف حقيقته جيداً . ونقائصه واضحة تماماً أمام عينيه . كل كلمة مديح تدخل إلى اذنيه ، يشعر فى داخله أنه لا يستحقها ، وأن الناس مخدوعون فيه . ربما يكون بالنسبة إليهم كالقبور المبيضة من الخارج (مت ٢٣) ... مجرد منظر من الخارج !!

ولا نقصد بمسكنة هذا الشخص ، كلمات متضعة يقولها ..

فما أكثر كلمات الاتضاع التى قد يلفظ بها إنسان ، ولا تدل إطلاقاً على حالة قلبه ... فقد يقول لك شخص : [أنا كلى خطية] .. ومع ذلك إن عاتبته فى شىء ، واظهرت له انه مخطىء فيه ، قد لا يحتمل ، ويثور عليك . ولا شك أن مثل هذا الانسان ليس مسكيناً بالروح ، مهما حاول أن يظهر المسكنة بألفاظه !!

أما المسكين بالروح ، فيقول كلمة الاتضاع من كل قلبه .

يقولها وهو يعنيها و يقصدها ، كحقيقة هو مقتنع بها ، وليس بأسلوب الرياء أو التظاهر. يقول إنه ضعيف ، أو خاطىء ، أو غير مستحق ... وهو فى كل هذه الصفات صادق مع نفسه . قلبه مثل لسانه تماماً .

وإن قيلت له هذه الألفاظ من آخرين لا يتضايق ..

بل انه يقول لنفسه ، كما قال القديس موسى الأسود لنفسه لما طردوه : [حسناً فعلوا بك هذا يا أسود الجلد يارمادى اللون . ومادمت لست بإنسان ، فلماذا تقف وسط الناس ؟!] ...

يليق بك أن تكون مسكيناً بالروح ، لأنك سقطت كثيراً ، كما إنك معرض للسقوط فى المستقبل بسبب ضعفك . وقد استطاع الشيطان أن يهزمك حتى فى خطايا تافهة استطاعت أن تسيطر عليك ، واصبحت عادات لم تتخلص منها على مدى سنوات ... !

المسكين بالروح : حتى إن لم يسقط ، يشعر بمسكنة :

يقول لنفسه : لعل الشياطين لم تحاربنى ، لأنها لا تشعر بوجودى ، أو لأنها تحتقر جهادى الروحى ، وترى أنه لم يصل إلى المستوى الذى يستحق المحاربة ! كمثال الراهب الشاب الذى اشتكى للقديس الأنبا بيشوى من ثقل محاربات الشياطين عليه ، فاحتج الشياطين قائلين : "مَن هو هذا الشاب ؟! إننا لم نسمع بعد بأنه قد ترهب ، لنحاربه !!" .

المسكين بالروح يقول لنفسه : إنها كبرياء منى أن أظن أن الشياطين تحاربنى ! فسقوطى بسبب نفسى وضعفها ، وليس بسبب الشياطين .

و يكون مثل تلميذ راسب فى امتحاناته . لا تأتيه كبرياء ، بل نفسه مكسورة بسبب هذا السقوط . ومهما قال له أحد انه ذكى أو مجتهد ، لا يصدق هذا الكلام... هكذا كن كلما تذكرت خطاياك ...

وحتى فى عدم سقوطك ، احتفظ بروح المسكنة ، خوفاً من السقوط ، حسب قول الكتاب : «قبل الكسر الكبرياء ، وقبل السقوط تشامخ الروح » (أم١٦ : ١٨). ذلك لأنه بالكبرياء ، قد تتخلى النعمة ، فيضعف الإنسان أمام الشياطين ويسقط ، حتى يشعر بضعفه ولا يعود ينتفخ . فالأفضل من الآن أن يشعر الإنسان بضعفه ، حتى لا يسقط .

ذلك لأن المسكنة بالروح ، هى فى ذاتها وقاية من السقوط .

فالمسكين بالروح لا يعتمد مطلقاً على قوته الخاصة ، إنما هو دائماً يلتمس معونة من الله تسنده فى ضعفه ... وسريعاً ما تأتيه المعونة ، حسب قول المزمور : « قريب هو الرب من المنكسرى القلوب ، ويخلص المنسحقى الروح » (مز٣٤ : ١٨) . وإذ تسند النعمة هؤلاء على الدوام بسبب اتضاعهم ، لذلك ينجون من حروب كثيرة ...

المسكين بالروح : يظهر اتضاعه الداخلى فى معاملاته مع الناس .

• مسكين أمام الناس :

الإنسان المسكين بالروح ، إذ يشعر فى داخله بضعفه وبخطيته ، يعامل نفسه هكذا ، ويتعامل مع الناس على هذا الأساس .

فهو لا يمكن أن يتعالى على أحد ، بل يقول لنفسه : مَن أنا حتى أتعالى على غيرى ، وكل هؤلاء أفضل منى ... أنا الذى فعلت كذا وكذا ... لذلك فهو يعامل جميع الناس ، بكل أدب ، وبكل احترام وتوقير ، حتى لو كانوا أصغر منه سناً أو مركزاً .

وهو دائماً يتخذ « المتكأ الأخير» ، ليس فقط من أجل تنفيذ الوصية ، إنما بالأكثر بسبب اقتناعه الداخلى بهذا ..

إن دخل الكنيسة ، يظن نفسه نشازاً فى لحن جميل ، ويرى نفسه فى جماعة المؤمنين ، كأنه لطعة تشوه صورتهم ! لذلك فهو لا يتكلم مع أحد بسلطان ، ولا يناقش أحداً فى مسئولية . وفى حياته عموماً يضع نفسه آخر الكل ، ويجعل من نفسه خادماً

للكل... وكما قال الشيخ الروحاني: فى كل موضع وُجدت فيه، كن صغير اخوتك وخديمهم.

المسكين بالروح لا ينتهر أحداً، ولا يغضب على أحد، ولا يحزن أحداً، لأنه يطلب بركات وصلوات كل أحد.

لا ينتقد أحداً، ولا يدين، ولا يشهر بأحد، ولا يتهكم على أى إنسان. ويضع أمامه باستمرار قول الرب:

«مَن كان منكم بلا خطية، فليقذفها أولاً بحجر» (يو ٨: ٧).

وهو فى إنسحاق قلبه، لا يقيم نفسه معلماً لأحد.

بعكس ذلك شاب عينوه فى الكنيسة خادماً لفصل من فصول مدارس الأحد. وكانت له فرصة أن يقرأ الكتاب ويعلمه للأطفال... تراه بكل جرأة يقيم نفسه معلماً ومرشداً لأسرته كلها، ورقيباً على أفعالهم، ومؤدباً لهم جميعاً! حتى فى علاقته مع والديه أيضاً! يمكن أن ينتهر ويعنف والده أو والدته على بعض التصرفات، بدون أحترام وبدون أدب! وينبههم إلى وصايا الله بعجرفة، وربما بإهانة أيضاً... كما لو كانت معرفته لله، بدلاً من أن تدعوه إلى الاتضاع، قد قادته إلى العجرفة...!

وإن عاتبته يقول إنه يدافع عن الحق! وتتعجب: لماذا يكون الدفاع عن الحق بهذا الأسلوب المنفر وبغير اتضاع؟!

لا شك أن الإنسان المنسحق بروحه يمكنه أن يدافع عن الحق، ولكن بأسلوب متضع. وهو قبل كل شيء، يأخذ حق الله من نفسه هو، قبل أن يطالب الآخرين بحقوق الله عليهم. وما يريد أن ينصحهم به، ينفذه أولاً فى حياته...

وقد يدافع عن الحق، بأن تكون حياته شهادة للحق.

وتكون حياته مبكتة للآخرين، دون أن يبكت أحداً بلسانه، وإنما هو يحتفظ بمسكنة الروح. وتقف قدوته الصالحة، الصامتة، لكى تبكت الآخرين فى أخطائهم...

إن الإنسان الذى يعرف الحق ويحب الحق، يعرف تماماً انه ليس من حقه أن يهين غيره بحجة الشهادة للحق...

المنسحق بالروح يفضّل أن يكون تلميذاً لا معلماً ...

إذا جلس فى مجتمع، يكون آخر المتكلمين، وفى ذهنه قول الكتاب: «ليكن كل إنسان مسرعاً فى الاستماع، مبطئاً فى التكلم» (يع ١: ١٩). وهويفعل هذا ليس، من أجل فضيلة الصمت، وإنما من أجل رغبة قلبية حقيقية فى أن يستفيد مما يُقال من حديث. وإن سألوه رأيه يقول: [البركة فيكم. أنا أحب أن أسمع وأن أستفيد] ...

والذى هكذا طبعاً، لا يمكن أن يقاطع غيره فى الكلام.

.فالذى يسكت غيره ليتكلم هو، إنما يحتقر كلام غيره، ويشعر أن ما يقوله، هو الأصح وهو الأفضل ... لذلك مثل هذا قد يقيم نفسه رقيباً على الناس فى احاديثهم، ويقول هذا صح وهذا خطأ. وهكذا إذ فقد اتضاع قلبه، يفقد اتضاع لسانه أيضاً... والمطلوب هو الأمران معاً: اتضاع القلب، واتضاع اللسان.

فالبعض إذا أخطأ، قد يعتذر بلسانه فقط، وليس بقلبه.

قد يقول كلمة «أخطأت». ولا تكون مقبولة منه، لأنه يقولها بلا مبالاة، وبدون روح، وبدون اتضاع، وبغير شعور قلبى بأنه أخطأ. لذلك لا يقتنع بها المساء إليه... وبنفس الوضع قد يضرب مطانية، ولا تقبل به.

ذلك لأنه فى المطانية، انحنى جسده فقط وليست نفسه!

مجرد شكليات، عمل ظاهرى بدون روح، لا يكون مقبولاً!

انظروا. هوذا المرتل يقول فى المزمور: «لصقت بالتراب نفسى» (مز ١١٩). «نفسى، وليس جسدى». الذى تُلصق نفسه بالتراب، هو الذى «يسجد بالروح والحق» (يو ٤: ٢٣).

مثل هذا الإنسان يفضّل جميع الناس عليه، باتضاع قلب.

وأقول باتضاع قلب ، لأن هناك نوعاً من الناس يصرّ على أن يأخذ المتكأ الأخير، فى عناد شديد، وليس فى مسكنة، بحيث لابد أن يخضع غيره لرأيه . وهكذا يأخذ المتكأ الأخير فى إنتصار، وقد أطاعه غيره مرغماً بعد وقت من الجدل ! ولا يكون فى كل هذا العناد والإصرار أى شىء من مسكنة الروح ... !

المتكأ الأخير يعنى الأخير فى المكانة وليس فى المكان .

وان جعلت نفسك الأخير فى المكانة ، تكون أنت الذى تخضع والذى تطيع ، ولا تكون الشخص الذى يرغم غيره إرغاماً أن يسبقه فى المكان... بصلابة رأى ! عليك أن تقدم غيرك فى الكرامة . وتطلب إليه ذلك مرتين أو ثلاثاً . فإن أصر، إخضع أنت... مادام ليس فى ذلك كسر لقانون أو وصية ...

مثال ذلك : إذا عرض عليك شخص سيجارة لكى تدخن معه ، وأصررت على الرفض ، فإن إصرارك حينئذ لا يكون عناداً ضد المسكنة .

ويمكنك أن ترفض فى أدب وتقول : [اعذرنى ، فأنا إنسان ضعيف الإرادة ، إذا دخنت مرة ، سيتحول التدخين عندى إلى عادة لا أستطيع إبطالها . كما أن صحتى لا تحتمل ، وماليتى لا تحتمل . والبعد بالنسبة إلىَّ أفضل وأضمن . كذلك مجرد رائحة التدخين تتعبنى] . وهكذا تعتذر وترفض وتصرّ، فى أدب وفى تواضع ... أو قد تقول : [صدقنى أنا سمعت عن التدخين اضراراً تجعلنى أخاف جداً] . فإن قالوا لك : [كن جريئاً ولا تخف] قل لهم : [إننى من النوع الذى يخاف من التدخين . فصلوا من أجلى لكى استمر فى خوفى ولا أدخن] . هنا الاصرار لا يتعارض مع المسكنة .

ونفس الكلام نقوله عن أية خطية مشابهة ...

فالإصرار على رفض الخطية والإغراء ، ليس عناداً ضد المسكّنة . فالمسكنة بالروح ليس معناها الخضوع للخطية بأى نوع . وإنما فضيلة المسكنة من المفروض أن تكون مرتبطة أيضاً بالقداسة والنقاوة . لأن من الخطأ التدرب على فضيلة واحدة ، مجردة عن باقى الفضائل ، أو متعارضة مع باقى الفضائل . فالفضائل تتكامل دون أن تتعارض ...

الذى يحتفظ بمسكنة الروح فى تعامله مع الناس، لا يدافع عن نفسه فى كل ما يُنسب إليه ...

إنه لا يريد أن يبرر نفسه، لأنه يعرف عن نفسه أنه ليس باراً. كما أنه لا يريد أن يتبرر أمام الناس، إذ لا يوافق ضميره أن يعطيهم فكرة عن نفسه هى غير حقيقته. لذلك يسمع و يصمت. وإن ناقش الموضوع فى داخله، يقول: أيقولون إننى خاطىء؟ أنا خاطىء فعلاً... وحتى إن لم أكن مخطئاً فى هذا الموضوع، فأنا مخطىء فى غيره، ولا فارق كبير... المحصلة واحدة وهى الخطأ.

ولكنه قد يدافع أحياناً، إن كان فى ذلك تهدئة لغيره.

كأن يغضب منه إنسان فى تصرف معين. وإن ثبت ظنه، يزداد غضبه، وقد يفقد محبته. لذلك فهو يشرح له الأمر، لا ليبرر نفسه، وإنما لكى يهدىء غضبه، ولكى لا يفقد محبته. ولا يتعارض هذا فى شىء مع المسكنة بالروح.

كذلك فإن المسكين بالروح، لا يحكى للناس عن اختباراته!

وبخاصة الاختبارات التى ترفع من قدره أمام الناس. المفروض أن علاقته مع الله هى سر من أسراره الخاصة. وقد تحدث الرب عن أهمية أخفاء الفضائل (مت ٦). إن السيدة العذراء ولا شك قد حدثت معها وأمامها عجائب لم تدخل فى اختبار أى إنسان على الأرض. ومع ذلك لم تكن تتكلم، وهى كنز من الأسرار، وكنز من الاختبار، وإنما «كانت تحفظ كل هذه الأمور فى قلبها» (لو٢ : ٥١).

والمسكين بالروح لا يقارن نفسه بغيره مقارنة ترفعه.

بل ان تحدث عن غيره - كما يروى البستان - يقول: هذا أبر منى، وهذا أكثر منى علماً، وهذا أفضل منى فى كل شىء. وهذا أكثر منى حرصاً وتدقيقاً ...

وهو يعامل كل الناس بشفقة مهما أخطأوا، عارفاً أنه أيضاً قد أخطأ مثلهم، وشاعراً بعنف حروب العدو...

والمسكين بالروح أمام نفسه وأمام الناس هو أيضاً:

الشخص المسكين أمام الله ، يشعر أنه غير مستحق الوقوف أمامه .

يظهر هذا الشعور فى كلماته المنسحقة التى تشبه صلاة العشار. ولا يفتخر فى صلاته كالفريسى . صلاته كلها إنسحاق ، مثل قوله : مَن أنا يارب حتى أقف أمامك وأتحدث إليك ، أنت الذى تقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة ؟!... إنه تواضع منك يارب أن تستمع إلى تراب مثلى ، وإلى خاطىء مثلى ...

والمسكين بالروح لا يقف أمام الله لكى يطالب ...!

لا يفعل مثل الذى يقف فى صلاته ، لكى يطالب بحقوقه كابن ، وكوريث مع المسيح !! إن المنسحق القلب يقول : أية حقوق لى أنا المضبوط بالخطايا ، الذى فى كل يوم أرتكب خطايا توقعنى تحت الدينونة ؟! بل ما هى صفاته كابن ، والرسول يقول : « المولود من الله لا يفعل خطية ... يحفظ نفسه ، والشرير لا يمسه » (١ يو ٣ : ٩ ؛ ١ يو ٥ : ١٨) .

. هل تظنون أن المسكين بالروح ، يجرؤ أو يساعده قلبه ، على أن يطالب الله بمواهب فائقة للطبيعة ؟!

أو يفهم خطأ عبارة « جدوا للمواهب الروحية » (١ كو ١٢ : ٣١) ..!

أترى هل يمكن لإنسان منسحق أن يتصور نفسه صانع عجائب أو قوات أو معجزات ، أو متكلماً بألسنة ، أو ينظر إليه الناس كقديس صاحب مواهب ؟! ... إن المواهب تحتاج إلى نفس منسحقة تحتملها : والنفس المنسحقة لا تطلبها . فإن وهبها الله إياها بدون طلب ، يهبها معها الاتضاع الذى يمكنه أن يحتملها ...

أما الذى يطلب المواهب ، فإنه ما أسهل وقوعه فى المجد الباطل ! لأنه قبل أن يطلب ، ظن فى نفسه أنه شىء . لذلك احترسوا من هذه الخطورة ... وهنا نقول أيضاً إن كلمة « يطالب » أصعب بكثير من كلمة يطلب .

الذى يطلب هو فقير يطلب ممَن هو أغنى منه. أما الذى يطالب فهو صاحب حق، يطالب به، دون تعطف ممَن يعطيه!

ولا يمكن أن تنطبق كلمة «يطالب» على العلاقة بين الإنسان (المديون)، والله الذى يطالبه بدينه، أو فى رفق وفى حب يسامحه بجميع ديونه، إذ ليس له ما يوفيه (لو ٧ : ٤٢)...

المسكين بالروح لا يدعى أنه تجدد وما عاد يخطىء!

فكلنا نخطىء كل يوم. و «إن قلنا إننا لا نخطىء، نضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١يو١ : ٨)... وإن كنت قد خلصت وتجددت وتبررت وتقدست وما عدت تخطىء، فكيف تقف أمام الله فى صلاتك وتقول: «اغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» (مت ٦ : ١٢).

بانسحاق الروح، يمكنك أن تقول للرب: لست أنسى فضلك..

أنت يارب حقاً تنضح علىَّ بزوفاك فأطهر. ولكننى على الرغم من هذا، أعود فأتدنس مرة أخرى...

الإنسان المسكين بالروح، كما أنه مسكين أمام نفسه، وأمام الله، وأمام الناس، هو أيضاً:

• مسكين أمام الشياطين:

إن الشياطين الذين سقطوا بالكبرياء، لا يمكنك أن تهزمهم بالكبرياء، بل بالاتضاع. وبهذا انتصر القديسون.

مثال ذلك القديس الأنبا أنطونيوس، الذى لما تجمعوا عليه، قال لهم: [أيها الأقوياء، ماذا تريدون منى أنا الضعيف..؟! ... إننى أضعف من أن أقاتل أصغركم]...

وكان يصرخ إلى الله و يقول : [انقذنى يارب من هؤلاء الذين يظنون أننى شيء] . فلما كانوا يسمعون صلاته المملوءة اتضاعاً ، كانوا ينصرفون عنه كالدخان...

ومرة قال القديس الأنبا أنطونيوس : [أبصرت فخاخ الشياطين مبسوطة على الأرض كلها . فصرخت إلى الله : يارب مَن يفلت منها . فأتانى صوت من السماء] [المتواضعون يفلتون منها] .

وهذه المسكنة بالروح التى تغلب الشياطين ، واضحة تماماً فيما يحكيه لنا القديس مقاريوس الكبير:

ظهر له الشيطان وقال له : "أى شيء تفعله يا مقارة ونحن لا نفعله ؟! أنت تصوم ، ونحن لا نأكل . وأنت تسهر ونحن لا ننام . وأنت تسكن البرارى والقفار ونحن كذلك . ولكن بشيء واحد تغلبنا ...".

فلما سأله القديس مقاريوس أجاب : "بتواضعك تغلبنا" ..

طوبى للمساكين بالروح

لأن لهم ملكوت السموات

مجرد حديث الرب عن المسكنة فقط ، قد لا يريح الناس ، ولا يغريهم على التنفيذ . لذلك وضع لهم ما يشجعهم على ذلك ، أعنى المكافأة فى الابدية ، ملكوت السماوات .

« طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات » (مت ٥ : ٣) .

هنا السيد المسيح يرفع أفكار سامعيه من الأرض إلى السماء ، من الاهتمام بالمُلك الأرضى إلى الانشغال بالملك السمائى ، وما يلزمه من صفات ، حتى تكون الفضائل عالية تليق بهذا الجزاء المرتفع فى علوه .

وهنا ينقل الرب أفكار الناس من العالم المادى ، إلى ملكوت السموات . فلا مانع أن يعيشوا هنا بمسكنة ، لكى يعيشوا فى ملكوت السموات إلى الابد ، بطقس لعازر المسكين (لو ١٦) . وبالمثل قال لهم الرب : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء » (مت ٦ : ١٩ ، ٢٠) . وبالمثل قال لهم أيضاً : « اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى للحياة الابدية » (يو ٦ : ٢٧) .

بالنسبة إلى الأجر والجزاء ، نقلهم أيضاً إلى السماء ...

فلا تعملوا الخير أمام الناس لكى ينظروكم ، كما يفعل المراؤون ، هؤلاء قد استوفوا أجرهم على الأرض (مت ٦ : ٥) . أما أنتم فاعملوا الخير فى الخفاء ، فيراه أبوكم الذى فى السموات ، ويجازيكم هناك ، علانية . هنا على الأرض كونوا مساكين بالروح . وثقوا انكم ستنالون المجازاة . وما هى ؟... ملكوت السموات .

ومن جهة المسكن ، كونوا غرباء ههنا ، ولتسكنوا فى السماء ..

إن ابن الإنسان ههنا « ليس له أين يسند رأسه » (لو ٩ : ٥٨) ولكنه ذاهب ليعد لكم مكاناً فى السماء . ويقول لكم عن ذلك : « فى بيت أبى منازل كثيرة » (يو ١٤ : ٢ ، ٣) . وهكذا قيل عن القديسين الذين « أقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض » وكانوا « ينتظرون وطناً أفضل أى سماوياً » (عب ١١ : ١٣ ، ١٦) . لأنه ليست لنا هنا مدينة باقية .

السيد المسيح لا يريد أن يكون طموحك فى الأرضيات ، وإنما فى السماويات . لذلك قيل : « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم ، لأن العالم يبيد وشهوته معه » (١ يو ٢ : ١٥ ، ١٧) .

وهكذا من بدء عظته على الجبل ، بدأ يوجه أنظار الناس إلى ملكوت السموات . وكأنه يعلن لهم إنه لم يأت ليؤسس لهم مملكة على الأرض كما يظن قادتهم ! إنه جاء ليقول : « مملكتى ليست من هذا العالم » (يو ١٨ : ٣٦) ولكى يعطى تلاميذه أن يعلّموا بأن « محبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) « إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » (١ يو ٢ : ١٥) .

إن عبارة ملكوت السموات تكررت كثيراً فى العظة على الجبل. وكذلك كلمة السماء، والآب السماوي. انه تبشير بعالم جديد، وبملكوت جديد، وبمستوى جديد عالٍ ومرتفع ...

ولماذا ؟ لأنه « حيث يكون كنزك، هناك يكون قلبك أيضاً » (مت ٦ : ٢١). هكذا قال لهم فى العظة على الجبل. فهو يريد أن تكون قلوبهم فى السماء، مرتفعة عن كل ما هو أرضى، سواء شهوات أو أمجاد أو آمال ...

وبهذا يمكنهم احتمال المسكنة بالروح، وبالتالى احتمال الصليب.

لا يمكن أن يحتمل الصليب، مَن كانت كل آماله على الأرض، ومَن كان يبحث عن الكرامة على الأرض. لهذا نجد كل العظة على الجبل سائرة فى هذا الطريق: الذى يحوّل الخد الآخر، الذى يمشى ميلين مع مَن يسخره ميلاً، الذى يترك الرداء لمَن يريد أن يأخذ منه الثوب ... الذى يبذل و يعطى، لكل مَن يطلب منه ...

وهكذا كل دروس الاحتمال والمغفرة فى العظة على الجبل، كانت تمهد عملياً إلى حمل الصليب، وإلى قبول فكرة الصليب ... ولماذا ؟ بلا شك من أجل ملكوت السموات ...

وماذا عن الكرامة ؟ كرامتك هى محفوظة لك فى السماء. وكرامتك هى فى الاحتمال وفى حمل الصليب، لأنك بهذا تشابه سيدك، وتشابه الأنبياء الذين كانوا من قبل. وهكذا قال لهم من أجل الملكوت السماوى: «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين».. لماذا هذه الطوبى؟ يجيب:

« افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات » (مت ٥ : ١٢).

حقاً إن العظة على الجبل، وكل تعاليم المسيحية، لا يمكن فهمها إلاّ فى ظل هذه العبارة: ملكوت السموات ...

كان الناس لا يعرفون ملكوت السموات هذا الذى كان يتحدث عنه السيد المسيح. ما كان يحدثهم عنه معلموهم المشغولون بتأسيس مملكة على الأرض، مثل « مملكة داود أبينا » (مر ١١ : ١٠). ومثل هذا التفكير كان عند المشغلين بغنى

العالم واهتماماته ، ومثله كان عند الفقراء الذين يهتمون ماذا يأكلون؟ وماذا يشربون؟ وماذا يلبسون (مت ٦ : ٢٥) .

ما كان أحد يفكر فى هذا الملكوت ، لذلك شبهه بالكنز المخفى .

وفى الاصحاح ١٣ من إنجيل معلمنا متى ، تكثر عبارة « ملكوت السموات » على فم السيد المسيح « يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفى فى حقل وجده إنسان » (مت ١٣ : ٤٤) فماذا فعل؟ من فرحه « باع كل ما كان له ، واشترى ذلك الحقل » . قال هذا لكى يريهم أنه من أجل ملكوت السموات ، ينبغى أن تبيع كل شىء ، وتترك كل شىء ، وتتنازل عن كل شىء ، حتى نفسك . وتقبل الموت ، موت الصليب .

وما أكثر الأمثلة التى وردت فى (مت ١٣) عن ملكوت السموات .

يشبه ملكوت السموات إنسان زرع زرعاً ... يشبه ملكوت السموات حبة خردل ... يشبه ملكوت السموات خميرة ... يشبه شبكة مطروحة فى البحر ... يشبه كل كاتب يخرج من كنزه جدداً وعتقاء ... وفى غير هذا الاصحاح أمثلة أخرى كثيرة .

المهم أن المسيح أراد تركيز أفكارهم فى ملكوت السموات .

وما كانت العظة على الجبل إلاَّ مقدمة للحديث عن هذا الملكوت حتى أن معلمنا مرقس الرسول يقول عن بشارة السيد المسيح : « جاء يسوع إلى الجليل ، يكرز ببشارة الملكوت » (مر ١ : ١٤) . وكما بدأت رسالته بالملكوت ، نسمع اللص على الصليب يقول له : « اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك » (لو ٢٣ : ٤٢) .

من أجل هذا الملكوت ، ترك تلاميذه كل شىء وتبعوه .

منهم مَن ترك الشباك والصيد ، ومنهم مَن ترك مكان الجباية . وكلهم تركوا الأهل والأسرة والبيت والبلد ... بل ان القديس بطرس الرسول يلخص كل ذلك بقوله للرب : « تركنا كل شىء وتبعناك » (لو ١٨ : ٢٨) . فيجيبه الرب . « الحق أقول لكم : إن ليس أحد ترك بيتاً أو والدين أو اخوة أو امرأة أو أولاداً ، من أجل ملكوت الله ، إلاَّ ويأخذ فى هذا الزمان أضعافاً كثيرة ، وفى الدهر الآتى الحياة الابدية » (لو ١٨ : ٣٠) .

وهنا يتحدث الرب عن ملكوت الله ، والدهر الآتى ، والحياة الابدية . إنها مركز الاهتمام فى المسيحية .

لأنهم يتعزون

وفى إنجيل معلمنا لوقا « طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم تتعزون » (لو ٦ : ٢١).

فهل الحياة المسيحية حياة حزن وبكاء ، وهل الفرح خطية ؟

كلا ، إن الفرح ليس خطية . والكتاب المقدس يجعل الفرح من ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢). والسيد المسيح يقول لتلاميذه : « ولكين سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم . ولا ينزع أحد فرحكم منكم » (يو ١٦ : ٢٢). والقديس بولس الرسول يدعو إلى الفرح الدائم ، بقوله : « افرحوا فى الرب كل حين ، وأقول أيضاً افرحوا » (فى ٤ : ٤).

المسيحية إذن تدعو إلى الفرح ، ولكنه فرح روحى فى الرب . وكذلك تدعو إلى عزاء روحى ، من الروح القدس المعزى :

ومن أمثلته **الفرح بالانتصار على الخطية** ، أو بحياة التوبة . وهذا الفرح تشترك فيه السماء أيضاً . لأنه « يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب » (لو ١٥ : ٧). فكل إنسان روحى يفرح بانتصاره على الخطية ، و بانتصار غيره أيضاً .

كذلك من أمثلته : **الفرح بانتشار الملكوت** ، ملكوت الله على الأرض ، فرح بانتشار الإيمان وكلمة الله ونمو الكنيسة وسلامها فى كل موضع .

كذلك من أمثلة الفرح المقدس : **الفرح بالخير وبالنجاح .**

وفى ذلك قال القديس يوحنا الحبيب لكيرية المختارة : « فرحت جداً لأنى وجدت من أولادك بعضاً سالكين فى الحق » (٢ يو ٤). وقال لغايس الحبيب : « فى كل شىء

أروم أن تكون ناجحاً وصحيحاً ، كما أن نفسك ناجحة ... ليس لى فرح أعظم من هذا : أن أسمع عن أولادى أنهم يسلكون فى الحق » (٣ يو ٢ ، ٤).

هذا هو الفرح الحقيقى ، النابع فى القلب من الروح القدس .

أما فرح العالم فهو فرح باطل . وعزاؤه أيضاً باطل .

وإن كان الرب يطلب منا أن نبكى هنا على الأرض ، فلهذا من صالحنا إن كان بكاء مقدساً يقود إلى الفرح فى السماء . وهذا يذكرنى بالمثل القائل : [الذى يبكيك ، يبكى عليك . والذى يضحكك ، يضحك عليك] . فإن حزنت قليلاً على الأرض ، من أجل أن تفرح إلى الابد فى السماء فهذا خير لك . كما قال الرسول :

« لأن الحزن الذى بحسب مشيئة الله ، يُنشىء توبة لخلاص بلا ندامة » (٢ كو ٧ : ١٠).

أما الذى يقضى العمر فى متعة وضحك ، متغافلاً عن أبديته ، مهملاً البكاء على خطاياه ، فماذا يفيده هذا الفرح الزائف والزائل ، حينما يقف أمام منبر الله العادل ؟!

لهذا نرى أن حياة الدموع كانت ميزة لأولاد الله ، وليس فقط للخطاة التائبين ، إنما أيضاً كانت ميزة للقديسين الكبار.

ويقدم لنا الكتاب المقدس ، وكذلك تاريخ الكنيسة ، أمثلة واضحة وكثيرة لدموع القديسين ، سنذكر بعضها .

كانوا يرون أن البكاء ههنا ، ينقذ من البكاء الابدى .

فالذى يبكى هنا ، إنما تسبقه دموعه فى اليوم الأخير، لتطفىء النار الملتهبة حوله . أما الذى لا يبكى على خطاياه فى فترة حياته على الأرض ، فإن البكاء لابد سينتظره فى الدينونة حيث لا رجاء ، وحيث قال الكتاب : « هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » (مت ٨ : ١٢) بلا فائدة طبعاً ...

ما أجمل الكلمات التى قالها القديس مقاريوس الكبير قبيل وفاته :

وكان قد شاخ ، وأصبح فى التسعين من عمره ، وقارب الوفاة . وقد اجتمع الرهبان حوله ، ليودعوه . فقال لهم كلاماً كثيراً معزياً ، اختتمه بقوله : [فلنبكِ يا اخوتى ههنا ، بدلاً من أن نبكى هناك ، حيث لا ينفع البكاء] . وبكى . وبكى الإخوة معه ...

ومن أعظم رجال الكتاب ، الذين اشتهروا بالبكاء : داود النبى :

كان ملكاً ، وقاضياً للشعب ، ورئيساً للجيش ، ورب أسرة كبيرة ، ومحاطاً بكل وسائل المتعة . وكان رجل مواهب شاعراً وموسيقياً وجبار بأس ... وأخطأ . وهنا عرف دموع التوبة ، كما لم يعرفها أحد من رجال الكتاب . انه يقول :

« أعوّم فى كل ليلة سريرى . بدموعى أبلّ فراشى » (مز ٦) .

عبارة « أعوّم » تدل على كمية الدموع الغزيرة . وعبارة « كل ليلة » تدل على أن البكاء لم ينقطع ، وعلى أنه كان يعود كل يوم من عمله كملك بكل عظمته ، لكى يبكى ... فهل تراه كان يبكى بالليل فقط ، كلا ، فهو يقول : « صارت دموعى لى خبزاً نهاراً وليلاً » (مز ٤٢ : ٣) و يقول : « مزجت شرابى بالدموع » (مز ١٠٢ : ٩) .

بعض هذه الدموع كانت للتوبة ، وبعضها بسبب الملكوت .

إنه يقول : « جداول مياه جرت من عينى ، لأنهم لم يحفظوا شريعتك » (مز ١١٩ : ١٣٦) . ومن هذا النوع أيضاً دموع **ارمياء** النبى (إر ٩ : ١) ، وبخاصة فى مراثيه ... ومن هذا النوع بكاء **عزرا** (عز ١٠ : ١) **ونحميا** (نح ١) . وبكاء الكهنة فى سفر **يوئيل** النبى (يوء ٢ : ١٧) . وبكاء **بولس** على الذين صاروا أعداء صليب المسيح (فى ٣ : ١٨) .

ودموع القديسين فى صمتها . كانت صراخاً إلى الله يسمعه .

ولذلك نرى داود يقول للرب : « انصت إلى دموعى » ، و يقول « الرب سمع صوت بكائى . الرب لصلاتى قبل » (مز ٦) .

والعجيب أن بعض هذه الدموع ، استمرت مدى الحياة .

الرب غفر لداود . وسمع هذه المغفرة من فم ناثان النبى . فما كان يبكى طلباً للمغفرة ، إنما كان يبكى حساسية ، كيف يفعل هذا ؟! ندماً ، وحباً لله ...

واستمرت معه هذه الدموع طول حياته . ولم ينقذه منها سوى الموت . لذلك حينما اقترب من الموت ، قال : « ارجعي يا نفسى إلى موضع راحتك ، فإن الرب قد أحسنّ إليّ . وانقذ نفسى من الموت ، وعينى من الدموع ... » (مز ١١٦ : ٧ ، ٨) .

ومن هذه الأمثلة الشهيرة : القديس أرسانيوس الكبير.

أنا متعجب . مَن من الناس يعرف سقطة للقديس أرسانيوس ، رجل الصمت والوحدة والهدوء . رجل كان البابا البطريرك ثاوفيلس يلتمس كلمة منفعة منه ، يرسل إليه كي يقبل زيارته له . رجل صلاة كان يقضى طول الليل فى الصلاة ، والشمس وراءه قد غربت ، و يظل قائماً فى صلاته حتى تشرق الشمس أمامه . ومع ذلك ...

كان من فرط محبته يبكى ، حتى تساقطت رموش عينيه !

وكان وهو يضفر الخوص ، يضع منشفة على ركبتيه ، لتتساقط فيها الدموع . لعله من فرط حساسية قلبه نحو الله ، يذكر اسمه فيبكى . يذكر نقائصه البشرية ، و يذكر تأخره فى الوصول إلى الله ، فيبكى (لأنه ترهب فى سن الأربعين) .

وعندما أتت الوفاة البابا ثاوفيلس ، قال قبل أن يلفظ انفاسه : [طوباك يا أرسانى ، لانك كنت تبكى من أجل هذه الساعة كل أيام حياتك] .

ومن رجال الدموع أيضاً القديس ايسيذيروس قس القلالى :

كان أباً لثلاثة آلاف راهب . وكان الشياطين يخشون المرور على قلايته ، ولا على مَن يجاورونه و يعيشون تحت ظل صلواته . وكان صاحب رؤى ويخرج شياطين... وحينما كان يصلى ، كان يجهش بالبكاء بصوت عال كان يسمعه تلميذه الساكن بجواره . فذهب إليه مرة وقال له : [لماذا تبكى يا أبتاه ؟] . فأجاب : [من أجل خطاياى] . فسأله : [حتى أنت يا أبانا ، لك خطايا تبكى عليها ؟] . فأجاب : [صدقنى يا ابنى ، لو كشف الله لك خطاياى ، ما كان يكفى ثلاثة أو أربعة يبكون معى عليها] ...

ونحن نملأ الدنيا نجاسة . ويظل الله يعصر فى عيوننا عصراً لتسقط منها دمعة واحدة ، وكأنه يعصر صخراً من صوان !

القديسون يبكون طول عمرهم على خطية ، أو يبكون بلا خطية . ونحن نشرب الخطية مثل الماء ولا نبكى ! لنا قلوب بدون حساسية ، كأن الله الذى أغضبنا ليس عزيزاً إلينا !

مثال آخر فى الحساسية للبكاء على الخطية : القديس بفنوتيوس :

كان تلميذاً للقديس مقاريوس الكبير، وخلفه فى رئاسة الاسقيط . وكان قديساً عظيماً ، منحه الله موهبة إخراج الشياطين . وكان البابا ثاوفيلس يطلب أن يسمع منه كلمة منفعة .

هذا القديس العظيم ، قال ذات يوم لتلاميذه : [يا أولادى ، حدث فى إحدى المرات وأنا صبى صغير بينما كنت سائراً فى الطريق ، انى رأيت خيارة على الأرض ، ربما كانت قد وقعت من الجمالين ، فأخذتها وأكلتها . وكلما أذكر هذه القصة أبكى] ...

كان ذلك قد حدث فى طفولته . وقد كبر وترهب ، وصار أباً لآلاف من الرهبان ، ونما فى القداسة جداً . ومع ذلك يقول : **[كلما أذكر هذه القصة أبكى]** .

السيد المسيح أيضاً بكى . ولم تكن له خطية على الاطلاق . **ولكنه بكى على خطايا الآخرين ، وما سببته هم من موت وضياع** . وبكى عند قبر لعازر، وهو يرى الإنسان الذى خلق على صورة الله ومثاله ، يقال عنه ـ حتى من أخته ـ إنه قد أنتن (يو ١١) !! ... بكى وهو يرى نتائج الخطية ، وكيف فصلت الإنسان عن الله ، وعرضته لغضبه ...

هناك قطعة عميقة فى صلاة نصف الليل ، تعليقاً على قصة المرأة الخاطئة التى بللت قدمى المسيح بدموعها (لو ٧ : ٣٨) . وفى هذه القطعة يقول المصلى :

« إعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة ، كما أعطيت فى القديم للمرأة الخاطئة » ..

هذا الأمر نطلبه من الرب فى كل ليلة ، وليس فى مناسبة معينة ، أو فى وقت ثم ينتهى .

إن الدموع لازمت القديسين طول حياتهم . وقد قال أحد الآباء إن النفس الباكية المنسحقة أمامه ، هى التى يخاطبها فى سفر النشيد قائلاً :

« حوّلى عينيكِ عنى ، فإنهما قد غلبتانى » (نش ٦ : ٥) .

أنت أيضاً فى كل ليلة ، قف أمام الله فى إنسحاق وقل له : [اعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة لأبكى على كبريائى وعنادى وشهواتى وغضبى.. إعطنى ينابيع دموع أبكى بها على محبتى للعالم ، وعلى حقدى وعداوتى ، ومحبتى للغلبة والانتصار على غيرى . إعطنى يارب ينابيع دموع لأبكى بها على خطايا اللسان ، وخطايا الجسد ، وخطايا الفكر ، وهى كثيرة جداً]...

إنك لو فتشت نفسك ، ستجد أسباباً كثيرة تدفعك للبكاء...

واحذر من البر الذاتى ، الذى يشعرك بأن حياتك كلها صفاء ، وعلاقتك طيبة بالله ، ولا يوجد سبب للدموع..! إننا محتاجون كل يوم أن نبكى على خطايانا وعلى نقائصنا . و يقول الرب فى سفر يوئيل النبى :

« إرجعوا إلىَّ بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح » (يوء ٢ : ١٢) .

لانه هكذا تكون التوبة الصادقة ، النابعة من قلب يشعر بثقل خطاياه . ونرى أن سليمان الحكيم ، بعد أن اختبر الحياة بكل متعها ، يعود فيقول :

الذهاب إلى بيت النوح ، خير من الذهاب إلى بيت الوليمة ، لان ذاك نهاية كل إنسان . والحىّ يضعه فى قلبه . الحزن خير من الضحك . **لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب** » (جا ٧ : ٢ ، ٣) .

من الجائز لو أن فقيراً قال هذه العبارات ، نقول إن حياته هكذا . ولكن قائل هذا الكلام كان ملكاً غنياً جداً ، مهما اشتهته عيناه لم يمسكه عنهما (جا ٢ : ١٠) .

وكانت الفضة فى أيامه كالحجارة من الكثرة (١ مل ١٠ : ٢٧). وكان الذهب كثيراً جداً. ومع ذلك رأى البكاء أفضل...

وهنا نسأل : ما هى الأشياء التى تشجع على البكاء ؟

ما يشجع على البكاء وما يمنعه :

١ - أولاً حساسية القلب ورقة الطبع :

الإنسان الحساس، بسهولة يتأثر و يبكى . ولهذا تجدون النساء أسرع فى البكاء من الرجال. ولكن الرجل الذى إذا بكى، يكون بكاؤه أقوى وأعمق، وله سبب قوى استطاع أن يهز صموده... هناك رجال كالصخر، يحتملون كل شيء، وليس من السهل أن يبكوا. فإن بكى أحدهم فلابد من أمر خطير أبكاه.

والإنسان الروحى الحساس، يجد أن الخطية هى أخطر شيء يمكن أن يبكيه، لأنها تفصله عن الله...

الذين لهم قساوة فى طباعهم، من الصعب أن يبكوا. والقساوة ليست أصلاً فى طبيعة الإنسان. فقد خلق الله الإنسان على صورته ومثاله، والله رقيق فى طبعه... لذلك إن وجدت قساوة أو خشونة فى طبع إنسان، فلعلها دخيلة عليه..

إن أردت أن تكتسب موهبة الدموع، فابعد عن القساوة.

لأن القساوة والدموع ضدان لا يلتقيان ... ويمكن أن تتحد القساوة والدموع، إذا أمكن اتحاد الماء والنار!

حاول إذن أن تبعد عن القساوة، وما ينتج عنها.

٢ - مما يبطل الدموع أيضاً : إدانة الآخرين، ومسك سيرة الناس، وبخاصة إن كان ذلك بقسوة وعنف، وبغير رحمة..

ومن ضمن ذلك أيضاً توبيخ الآخرين ، ويزيد ذلك إن كان التوبيخ أمام الناس ، أو كان توبيخاً بشدة وبقسوة ، وفى غير تقدير لظروفهم ...

الذى يدين الآخرين ، إنما يفكر فى خطاياهم ، وليس فى خطاياه هو!

إن فكرت فى خطاياك ، يمكن أن تأتيك الدموع . وإن فكرت فى خطايا غيرك بقصد الإدانة ، تبعد عنك الدموع تلقائياً ...

ولو كان الله يديننا كما ندين غيرنا ، ما خلص أحد من الناس . وهوذا داود النبى يخاطب الرب قائلاً : «لا تدخل فى المحاكمة مع عبدك ، لانه لا يتزكى قدامك أى حىّ» (مز١٤٢) . ولعل البعض يسأل :

ما رأيك فى الطوائف التى تصلى دائماً ببكاء وصراخ ؟

أقول لك إن الشخص الذى يبكى فى صلاته ، إنما يبكى قدام الله ، ولا يصيح صارخاً قدام الناس ، ولا يجمع الناس من حوله لكى تتفرج على دموعه ...!

الإنسان الروحى الذى يبكى فى صلاته ، هو شخص حزين يريد أن ينفرد بالله ، ويسكب أمامه نفسه ودموعه ، كما فعلت حنة أم صموئيل ، حينما كانت تصلى وتبكى فى صمت (١صم ١ : ١٠ ، ١٣) .

وأقوى الدموع ، هى التى تنسكب فى حزن صامت رزين .

دون أن ترفع صوتها ، ودون أن تعلن عن ذاتها . وربما ترتفع أحياناً حينما يجهش الإنسان بالبكاء ، على الرغم منه ، مثلما فعل داود لما سمع بموت ابنه ابشالوم (٢صم ١٩ : ٤) ومثلما فعل يوسف الصديق لما التقى باخوته (تك ٤٥ : ٢) .

وقد يبكى شخص على خطايا غيره ، إشفاقاً وحباً :

كما بكى إرمياء النبى بسبب خطايا الشعب ، وكما بكى عزرا وأيضاً نحميا على شعب أورشليم الخاطىء أثناء السبى .

وقيل عن القديس يوحنا القصير إنه لما كان يبصر إنساناً يخطىء ، كان يبكى بسبب نشاط الشيطان فى إسقاط الناس . وكان يقول : [**أخى سقط اليوم . وربما أسقط أنا غداً** . وقد يسقط هو و يتوب . وأنا أسقط ولا أتوب !] .

أما نحن فحينما نسمع عن سقطة ، ندين صاحبها بغير حب . فلماذا هذا ؟ هل إذا سمعت أن هناك أسداً طليقاً فى مدينة مجاورة ، قد افترس إنساناً ، أتراك تدين هذا الإنسان لانه لم يهرب من الأسد ؟! هوذا عدونا مثل أسد زائر... (١ بط ٥ : ٨)... وهل إذا سمعت عن وباء فى مدينة ، أتبكى على الناس أم تدينهم ؟!

أتقول ليست لى موهبة الدموع ؟! أم أنت تمنع الموهبة !

إنك تمنع الدموع بالقسوة وبالعنف وبالادانة ، كما تمنعها أيضاً بكثرة المناقشات والجدل ، والصراخ والزعيق ، وبالتركيز فى خطايا الغير تركيزاً يمنعك عن تذكر خطاياك !

٣ ـ ومما يمنع الدموع أيضاً الغضب والنرفزة :

الغضوب إنسان ثائر ساخط نارى ، بعيد فى ثورة غضبه عن رقة الطبع التى تلازم الدموع . فإن قال لك أحد : [فلان غضوب وبكى فى غضبه] ، فلعله يكون قد بكى من الغيظ ، مثلما بكى عيسو لما ضاعت منه البكورية ، وقال بعدها : أقوم وأقتل يعقوب أخى (تك ٢٧ : ٣٨ ، ٤١)... ليس هذا هو البكاء الروحى الذى نقصده... مثل بنت لم تستطع أن تأخذ ما تريد من أمها أو أبيها ، ولم تنجح فى حديثها معهما ، فتدخل فى حجرتها وتبكى...

حتى لو كان إنسان له موهبة الدموع ، يضيعها الغضب .

فالإنسان فى ثورة غضبه ، يفكر فى خطايا غيره ، ولا يفكر فى خطاياه هو. ويرى نفسه مظلوماً وصاحب حق ، أو يرى نفسه وقد خدشت كرامته ... وكل هذه مشاعر لا تتفق مع الدموع ، ولا تجلبها بل تضيعها ..

٤ ـ يضيع الدموع أيضاً ، السير فى حياة الشهوة والخطية :

الذى يعيش فى لذة الخطية ، لا يبكى ، لأن اللذة طاغية عليه . وشعوره بالسرور ، لا يعطيه فرصة لأى حزن مقدس . الابن الضال وهو يلهو مع أصدقائه ، ما كان حزيناً وقتذاك . ولكنه لما جلس إلى نفسه أتاه الإنسحاق .

الذى يعيش فى نشوة العظمة أو الأمجاد العالمية ، كيف يحزن ؟! ولكنه عندما يشعر ـ كسليمان ـ أن الكل باطل وقبض الريح ، حينئذ ينسحق .

الدموع لا تناسب الخطية ، إنما تناسب التوبة عن الخطية .

إلاَّ فى حالة المقهور من نفسه ، العاجز عن مقاومة الخطية ، إنه قد يخطىء و يبكى طالباً الفكاك منها . ثم يعود فيخطىء و يبكى ، إلى أن تفتقده النعمة وتنقذه .

٥ ـ مما يضيع الدموع أيضاً : الفخر والكبرياء ومحبة الكرامة .

الذى يحزن حزناً مقدساً ، أو يغلبه بكاء روحى ، هو الشخص المنسحق وليس المتنفخ . إن المتكبر محب الكرامة ، إنما ينشغل بذاته ورفعتها فى هذه الدنيا . ولكن يبكى الذى يفكر فى أبديته ، فتصغر كل أمجاد الدنيا فى عينيه .

٦ ـ مما يضيع الدموع أيضاً ، التفكير فيها ، والفرح بها :

وذلك إن فكر انه أصبح من أصحاب الدموع . ففرحه بذلك فيه نوع من الكبرياء ، والكبرياء ضد الدموع . كما أن الفرح نفسه ضد الدموع . أو على الأقل يكون قد أشبع نفسه ، فما حاجته بعد إلى دموع !

و يقول القديسون : إن أتاك فرح أثناء البكاء ، فلا تفكر فى دموعك ، إنما فكر فى سبب البكاء ، فتعود إلى إنسحاق نفسك مرة أخرى ...

فإن كان الإنسان ينبغى أن يخفى دموعه حتى عن نفسه ، فماذا نقول عن الذين يحبون أن يبكوا فى صلواتهم بصوت عالٍ أمام الناس؟! و يظنون أن هذه هى الروحانية !

وهكذا نكون قد تكلمنا عن أشياء كثيرة تمنع الدموع .

ومن الأشياء التى تجلب الدموع : التجارب والضيقات :

والله يسمح بالتجارب لكى ينسحق الإنسان و يشعر بضعفه ، كما يشعر أن الدنيا لا تستحق شيئاً ، و يتجه إلى الله . وقد تضغط عليه الضيقات فيبكى . بينما الإنسان البعيد عن التجارب قد يتقسى قلبه .

ومما يجلب الدموع أيضاً تذكار الموت ، وبالتالى زيارة المقابر .

وهكذا كان القديسون يتذكرون الموت ، و يقولون مع المرتل : « عرفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى ، لأعرف كيف أنا زائل » .

وبتذكار الموت ، تزول الكبرياء ، وتختفى اشهوة الإنسان للعالم ، و يستعد للأبدية بالتوبة ، وهكذا تأتيه الدموع .

ومما يجلب الدموع أيضاً ، تذكار الإنسان لخطاياه وبشاعتها .

على أن يكون تذكاراً بندم وحزن ، وتبكيت ضمير ، وشعور بالسقوط . حيث يقول : « اعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة كما أعطيت للمرأة الخاطئة » .

طوبى للودعاء

لأنهم يرثون الأرض

(مت ٥ : ٥)

من هم الودعاء؟

الشخص الوديع هو الشخص الهادىء فى طبعه ...

إن السيد المسيح ، الوديع ، الذى قال لتلاميذه : «تعلموا منى فإنى وديع ومتواضع القلب» (مت ١١ : ٢٩)، قيل عنه إنه كان : «لا يخاصم ولا يصيح ، ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف . وفتيلة مدخنة لا يطفىء» (مت ١٢ : ٢٠) . وعبارة «لا يصيح» تعطينا فكرة عن الوديع :

فالوديع صوته هادىء ، لا حدة فيه ، ولا صياح ...

لا يعلو صوته على الناس فى حديثه معهم ، ولا يصرخ فيهم منتهراً ، ولا يثور . إنه إنسان دمث الخلق ، هادىء ، يريد دائماً أن يكسب محبة الناس . و«المحبة لا تحتد» (١ كو ١٣ : ٥) . لذلك فهو يرث الأرض ، يكسب الناس الذين على الأرض بهدوئه ... كما هو يكسب السماء أيضاً .

هنا وأحب أن أفرق بين هدوء الطبع ، وبرودة الطبع ...

الإنسان الوديع الهادىء ، لا يثور على الناس ، ولا يثيرهم .

بينما البارد فى طبعه ، قد لا يثور ، ولكنه ما أسهل أن يثير الناس ببروده ..! برود باردة قد تتعب الأعصاب بل تحطمها ...

أما الوديع ، فهو إنسان هادىء ، و يشيع الهدوء فى غيره ...

وهو أيضاً طيب القلب ، يحب أن يرضى الكل ...

يجب أن يكون فى علاقة طيبة مع الجميع . إنه لا يغضب من أحد ، مهما حدث ... ولا يستريح أن يترك أحداً غاضباً عليه . إنما يتبع فى ذلك نصيحة القديس الأنبا أنطونيوس الكبير حينما قال : [اجعل كل أحد يباركك] ، أى يدعو لك بالخير. وهكذا تكون فى علاقة محبة وسلام مع جميع الناس ...

والوديع هو إنسان هادىء ، من الداخل كما من الخارج :

إنه ليس مثل بعض الناس الذين يظهرون هادئين من الخارج ، بينما فى داخلهم ثورة وغليان ، و يكتمون غضبهم لسبب روحي أو غير روحي ، أو سياسة ، أو احتراماً لمَن هو أكبر منهم ، أو خوفاً من نتائج الغضب ...

كلا ، بل هو هادىء تماماً . من الداخل مشاعره وعواطفه وأحساساته فى هدوء وفى سلام قلبى ، لا يثور ولا يحقد ... ومن الخارج له ابتسامة لطيفة بشوشة ، يقابل بها أحاديث الناس ومعاملاتهم . ولا يحدث أن يراه الناس وقد اكفهرت ملامحه ، أو أحمرت عيناه ... وهكذا فإن الإنسان الهادىء من الخارج ، و يغلى فى داخله ، ليس هو وديعاً فى الحقيقة ... أقصى ما نقول إنه يحاول أن يتدرب لكى يصير وديعاً ..!

الوديع لا يدافع عن نفسه ، ولا ينتقم لنفسه :

إنه كثيراً ما يتنازل عن حقوقه ، وبدون أن يحزن . ولا يشاء مطلقاً أن يخسر أحداً من الناس بسبب هذه الحقوق . فسلامه مع الناس ، هو عنده أهم من التمسك بحقوقه . وإذ هو وضع الاثنين فى ميزان ، ترجح بلا شك كفة السلام مع الناس .

وهو يفعل ذلك تلقائياً ، دون أن يناقش الأمر داخله ...

ومع أن الكتاب يقول : « الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (خر١٤ : ١٤) كذلك يقول الرسول : «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء ... لأنه مكتوب : لى النقمة ، أنا أجازى ، يقول الرب » (رو ١٢ : ١٩) ، إلاّ أن الوديع على الرغم من هذا ...

لا ينتقم لنفسه مطلقاً ، ولا يطلب من الله أن ينتقم له ..

يكفيه أن الله يدافع عنه فلا يصيبه أذى . ولكنه فى نفس الوقت ، لا يحب أن أحداً يصيبه أذى بسببه ، أو من أجله ...

الوديع إنسان سهل التفاهم ، لا يتعب أحد فى التعامل معه .

إنه فى التعامل ، لا يضع أمامه أن يكسب من غيره ، وإنما يكسب غيره . لذلك عنده استعداد لعديد من التنازلات دون أن يتضايق أو يحزن .

أحياناً يقول البعض عن الوديع إنه إنسان (غلبان) !

ولعلك تسأل وتقول : [وما الذى يدعونى أن أكون هكذا ، بهذه الصفة ؟!] صدقنى إن كنت هكذا سيكون الله معك ، و يعطيك أكثر بكثير مما تتنازل عنه ... أما إن كنت شديداً مع غيرك ، فإن الله سيتركك لتختبر إلى أى مدى سوف تنفعك قوتك !! لذلك يقول الكتاب : « طوبى للودعاء » ...

الوديع إنسان سهل إذا ما تناقشت أو تحدثت معه :

لا يجادل ، ولا يقاطع ، ولا يحاول أن ينتصر فى المناقشة . بل يعطيك كل الفرصة أن تتكلم كما تشاء ، وتقول ما تشاء ، مادام الموضوع لا يمس عقيدة أو إيماناً . وفى هذه الأمور الإيمانية يقول الرأى القوى بهدوء و بساطة ، دون أن يجرح مَن ينلقشه ، بل قد يقول له : [ما رأيك ؟ أليس من الحق أن نقول كذا ؟] . يقدم رأيه القوى فى صيغة سؤال . و يترك قوة الرأى تتكلم ... دون أن يقسو ، ودون أن يفتخر ....

أما فى الأمور العادية ، فسيان عنده هذا الرأى أو ذاك .

فى أمور العالم الباطل ، لا يهمه أن ينتصر فى نقاش . فليقل مَن يقولون ما يريدون أن يقولوه . وهو يتركهم حسب هواهم . إن كان يعجبهم أو يسرهم أن ينجح رأيهم ، فلهم ما يشاءون ... لذلك هو لا يناقشه ولا يجادل ، فى أمور لا علاقة لها بخلاص النفس وأبديتها ... إنها مسائل لا تعنيه .

وأحياناً يجلس فى مجلس صامتاً ، لا يشعر أحد به !

مادام ليس مكلفاً فيه بمسئولية ، فلماذا يظهر ؟!

وإن طلبوا إليه أن يتكلم ، ربما يقول : [أنا أحب أن استفيد] .. أو يقول : [البركة فى فلان] ... وإن تكلم ، قد يمتدح مَن سبقوه فى الكلام . ولا مانع من أن يقول فى حديثه : [على رأى فلان ... وفلان ...] .

إنه إنسان لطيف ، يحب الناس صمته وهدوءه إن صمت .. كما يحبون كلامه وأسلوبه فى الحديث ، إن تكلم ..

وقد يسأل البعض : هل صمت الوديع هو إنطواء على النفس ؟!

نقول كلا ، فالشخص المنطوى لا يعرف كيف يتعامل مع المجتمع ، لذلك هو ينطوى ، وهو ساخط على كل ما حوله ..

أما الوديع فهو ناجح فى تعامله مع الناس ، يحبهم ويحبونه . وإن سكت أحياناً ، يكون ذلك بدافع من التواضع والحب ، وليس بدافع الإنطواء . فهو يعطى فرصة لغيره لكى يتكلم ، ويقدم غيره على نفسه فى الكرامة (رو١٢ : ١٠) . كما أنه يصمت لكى يستفيد من حديث غيره . وهو أيضاً لا يميل إلى الدخول مع الناس فى صراعات الجدل ، مفضلاً السلام ... وهو يرضى الذين يحبون الكلام ...

والإنسان الوديع لا يضغط على أحد ، ولا يستعمل العنف :

ولا يلح على أحد إلحاحاً شديداً ، لكى يأخذ موافقته على أمر من الأمور ، بغير إرادته ، بأسلوب الإلحاح والضغط ...

إنه لا يبحث عن راحته ، وإنما عن راحة الناس ..

لذلك فإن الذين يعاشرونه ، يشعرون براحة فى عشرته . ويقول كل مَن يعامله : [فلان روحه لطيفة . إننى أشعر براحة معه] ... فإن قدرت أن تسلك مع الناس هكذا ، تكون وديعاً فى سلوكك ...

الوديع لا يصر على أن ينتصر لفكرته أو رأيه .

ومع ذلك فهو من جهة المبادىء السليمة لا يتنازل . ولكن لا يتشاجر مع الناس بسبب ذلك . ولعل هذا الأمر يحتاج إلى حكمة تمتزج بالوداعة .

ولذلك فإن القديس يعقوب الرسول يحدثنا عن وداعة الحكمة .

ويقول فى ذلك : « مَن هو حكيم وعالم بينكم ، فليرِ أعماله الحسنة فى وداعة الحكمة » (يع ٣ : ١٣) . لأن هناك « حكماء » قد يكونون فى شرح حكمتهم عنفاء ، يصرون على رأيهم فى غيرة وتحزب ، وقد يسببون إنقساماً وتشويشاً !! فعن هؤلاء يقول

الرسول : «ليست هذه الحكمة نازلة من فوق ...» ذلك لأنها خالية من الوداعة ... لذلك يقول الرسول عن الحكمة الوديعة :

« وأما الحكمة النازلة من فوق ، فهي ... مسالمة مترفقة مذعنة ، مملوءة رحمة وأثماراً صالحة ...» (يع ٣ : ١٧) .

هذه هي الحكمة الوديعة المسالمة ، التي يختم الرسول حديثه عنها بقوله : «وثمر البر يُزرع في السلام ، من الذين يفعلون السلام» (يع ٣ : ١٨) .

عجيب حقاً ، أن بعض الناس ، يتوصلون إلى شيء من الحكمة ، أو يظنون أنهم حكماء ، فإذا شعورهم بالحكمة يفقدهم حياة الوداعة والهدوء ، ويجعلهم عنفاء في الدفاع عن آرائهم ! يجرحون كل مَن يخالفهم ، ويخدشون مشاعره !!

العنف قد يكون أسلوباً سهلاً وقصيراً ، يوصل بسرعة ! ولكن الوديع لا يمكن أن يستخدمه ...

فإن أعطاه الرب تلك الحكمة النازلة من فوق ، فإنه يوصلها إلى الناس بأسلوب هادىء ، في طيبة ، في رقة ، في لطف . ولا يغضب ولا يثور ، إن خالفوه في وقت ما ، أو كانوا بطيئين أو متباطئين في التنفيذ ... يصبر عليهم ، و يتأنى ، حتى يمكنهم أن ينفذوا ...

ولذلك يُقال عن الوديع إن : [حباله طويلة] ، أي أنه طويل الأناة ..

غير الوديع يريد أن يفرض الأمر بسرعة ، وليحدث ما يحدث .

أما الوديع فإنه يعطي فرصة لسامعه ، ولمَن يتتلمذ عليه ، لكي يصل حسبما تسعفه إمكانياته . إن لم يصل اليوم ، فقد يصل باكر أو بعد باكر . ليس لنا نحن أن نتحكم في عامل الزمن ، الذي تتحكم فيه أسباب عديدة ...

من صفات الوديع أيضاً أنه متسامح ...

إن أخطأت في حقه ، لا يخطىء في حقك . وإن حدث أنك أهنته ، فإنه لا

يهينك. إن له طباعاً لا يستطيع أن يتجاوزها، وله مبادىء لا يمكنه أن يكسرها. هو «لا يستطيع أن يخطىء» كما يقول القديس يوحنا الحبيب: «بل يحفظ نفسه، والشرير لا يمسه» (١ يو ٥: ١٨) «وزرعه يثبت فيه» (١ يو ٣: ٩).

الإنسان الوديع لا يتحدث من فوق، من موقع السلطة:

إنه ينسى مركزه باستمرار، مهما وضع في مركز عالٍ أو رئاسي. و يتعامل مع مرؤوسيه كأنه واحد منهم. وهؤلاء المرؤوسون في تعاملهم مع رئيس وديع، يشعرون أنه صديق محب، وأخ كبير، وأنه لا يلقى تعليمات بروح الغطرسة بل بهدوء... لذلك فهم يطيعون أوامره عن حب، وليس عن قهر.

الناس يدافعون عن الوديع، دون أن يدافع هو عن نفسه.

وإن هاجمه البعض، يصدونهم عنه، قائلين: [ألم تجدوا سوى هذا الرجل الطيب لكي تهاجموه؟!]... وليس هذا فقط، بل إن الشخص المعتدى ربما لا يتعبه ضميره في اعتدائه على إنسان عنيف. ولكن ضميره لابد يتعبه - ولو بعد حين - إن أعتدى على شخص وديع، لا يدافع عن نفسه...

الوديع هو الذى يستطيع أن ينفذ وصية الرب القائلة: «لا تقاوموا الشر» (مت ٥: ٣٩).

وقد يتضايق الذين حوله مما يصيبه، بينما يقابل هو كل شيء بهدوء دون أن يفقد سلامه... وتراه في كل ما يحدث له، لا يتذمر ولا يشكو، بل يقبل ذلك في صبر، تاركاً الأمور لله الذى يرى.

الوديع إنسان مطيع (مهاود). ولكن ليس في الشر.

فهو يعتذر عن السير في طرق الشر - إن دعاه البعض إلى هذا - لا يطيعهم. ولكنه يرفض في هدوء، دون أن يوبخ بعنف. فإن دعاه البعض إلى مكان معثر لا يوافق عليه ضميره، يجيبهم في هدوء: [إن الضعفاء أمثالي يتعبون من هذه الأمكنة، وقد تسقطهم ما فيها من عثرات. فاعذروني، لا أستطيع الذهاب]... و بهذا يكون قد أوضح رأيه النقي، دون أن يخدش أحداً...

والإنسان الوديع بسيط ، يأخذ الأمور على محمل حسن ..

و يضع أمامه قول الكتاب : « كل شيء طاهر للطاهرين » (تى ١ : ١٥) .

فإن قال له أحد كلمة ، تبدو للآخرين مؤذية أو مهينة ، يأخذها هو بحسن نية ولا يتأذى منها . وإن نبهه البعض إلى ما في تلك الكلمة من أذى ، لا يصدق . « فالمحبة لا تظن السوء » (١ كو ١٣ : ٥) .

الوديع بطبعه ، لا يحاول أن يغير طبعه إلى الشدة ...

وإن حاول ، قد لا يستطيع . وقد لا يكون ذلك في صالحه .

لكل كائن طبعه الذى يناسبه : الحمامة طبعها الوديع مناسب لها . والأسد طبعه الشجاع الجرىء مناسب له .

لا يناسب الأسد ، أن يقلد الحمامة فى وداعتها .

ولا يناسب الحمامة ، أن تقلد الأسد فى شجاعته .

لعل هذا يذكرنى بوصية الرب أنه : « لا يلبس رجل ثوب امرأة . ولا يكون متاع رجل على امرأة » (تث ٢٢ : ٥) . بل كل منهما يلبس ما يناسبه . وكما هذا فى الملابس ، كذلك أيضاً فى الطباع .

الوداعة والغيرة المقدسة :

هنا و يقف أمامنا سؤال هام فى موضوع الوداعة وهو:

هل الوديع غير مطالب بقول الكتاب : «غيرة بيتك أكلتنى» (مز ١١٩) ؟ هل يكون هادئاً أيضاً مع الهراطقة والمبتدعين والذين يهاجمون الإيمان ؟

والجواب هو أن الوديع يمكن أن يدافع عن الإيمان بغيرة مقدسة ، ويمكن أن يرد على الهراطقة والمبتدعين وأعداء الإيمان ، ولكن بأدبه الجم ، دون أن يشتم أو يستهزىء . وإنما يتكلم بطريقة موضوعية .

ويعجبني فى هذا المجال القديس ديديموس الضرير:

كان يجادل الفلاسفة والمراطقة ، بهدف أن يقنعهم ، لا أن يهزمهم . وكثير من الفلاسفة آمنوا بالمسيحية على يديه ، وهراطقة تركوا هرطقاتهم. لأنه كان يقنعهم جميعاً فى وداعة ، دون أية كلمة جارحة ، ودون أية إهانة أو شتيمة . وليس مثل الذين يشتمون أعداء الدين ، إلى أن يكرهوا الدين بسببهم !

فلتكن إذن غيرة حكيمة مملوءة بالمحبة والوداعة .

إن عبارة « غيرة بيتك أكلتنى » ، نضع إلى جوارها « لتصر كل أموركم فى محبة » (١ كو ١٦ : ١٤) وأيضاً قول الرسول : « لم أفتر أن أنذر بدموع كل واحد » (أع ٢٠ : ٣١) ...

وهنا فى هذا المجال ، أحب أن أقدم نصيحة وهى :

إن الفضائل المسيحية متصلة بعضها بالبعض ، غير منفصلة .

إنها مندمجة معاً ... فضيلة الغيرة المقدسة مثلاً ، ليست منفردة بذاتها ، مستقلة عن باقى الحياة الروحية . بل هى تندمج أيضاً مع فضيلة الوداعة وفضيلة الحكمة . وتندمج أيضاً مع اللطف ومع المحبة . وبهذا نصل إلى وضع روحى متكامل ...

حقاً ، إن الفضائل لا تتناقض ، وإنما تتكامل ...

أى يكمل بعضها بعضاً ، حتى يصل الإنسان الروحى إلى الصورة المثلى ، صورة الكمال ...

طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض :

• ما هى هذه الأرض :

١ - إنها « أرض الأحياء » التى تغنى بها المرتل فى المزمور.

فقال : « وأنا أومن أن أعاين خيرات الرب فى أرض الأحياء » (مز ٢٧ : ١٣) .

أو أنها « الأرض الجديدة » التى رآها القديس يوحنا فى رؤياه (رؤ ٢١ : ١) أو هى « كورة الأحياء » التى يتنيح فيها القديسون ...

هذا معنى . وهناك معنى آخر وهو :

٢ - الوديع يرث هذه الأرض نفسها التى نعيش عليها .

فهو يكون محبوباً من الكل على هذه الأرض ، بسبب وداعته ، بالإضافة إلى الميراث السماوى أيضاً . ولذلك فمن الأوفق أن نقول عن الإنسان الوديع :

٣ - إنه يرث هذه الأرض ، والأرض الجديدة ، كليهما معاً .

أى أنه يكسب الأرض والسماء معاً : بركة العائشين على هذه الأرض ، وعشرة المنتقلين إلى أرض الأحياء ...

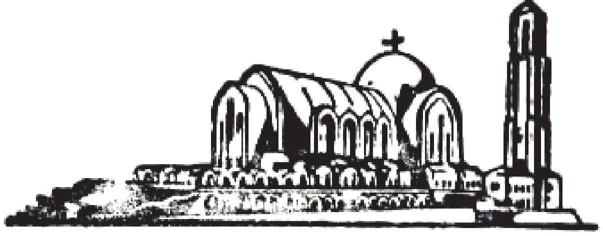

طوبى

للجياع والعطاش إلى البر

(مت ٥ : ٦)

معنى الجياع والعطاش إلى البر :

هذه العبارة تعنى حالة الإنسان الذى يشتاق إلى البر. يريد أن يتغذى به، يأكله ويشربه، وينمو به.

تعنى الجياع العطاش إلى الله ، وإلى وصاياه وطرقه، وإلى الفضيلة فى كل تفاصيلها، وإلى كل الوسائط الروحية..

هوذا المرتل يقول للرب فى المزمور الكبير :

« كلماتك حلوة فى حلقى . أحلى من العسل والشهد فى فمى» (مز١١٩ : ١٠٣).

وعلى هذا النسق نجد آيات عديدة فى الكتاب المقدس. بل أن السيد الرب الإله نفسه يتحدث عن هذه النقطة، وأنه هو الماء الحى، الذى كل مَن يشرب منه لا يعطش إلى الابد (يو ٤ : ١٤)، وأنه هو خبز الحياة (يو ٦ : ٣٥). و يقول أيضاً موبخاً بنى إسرائيل :

« تركونى أنا ينبوع المياه الحية ، لينقروا لأنفسهم آباراً، آباراً مشققة لا تضبط ماء» (إر ٢ : ١٣).

طوبى إذن للعطاش إلى هذا الينبوع الحى، أى إلى الله نفسه، يشتاقون إليه، وإلى الثبات فيه، وإلى جمال العشرة والحديث معه. وفى ذلك يقول داود النبى فى مزاميره :

« يا الله أنت إلهي ، إليك أبكر . عطشت نفسي إليك» (مز ٦٣ : ١) .
ويقول أيضاً : «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله . عشطت نفسي إلى الله الحي» (مز ٤٢ : ١) . نعم هذا هو العطش المقدس .
ويقول المرتل عن الأكل أيضاً :

« باسمك أرفع يديَّ ، فتشبع نفسي كما من شحم ودسم » (مز ٦٣ : ٤ ، ٥) . هذا هو الحب الإلهي الذي يعطي شبعاً للنفس .

الإنسان مخلوق من جسد ترابي ومن روح . أما الجسد فيشبعه الخبز المادي . وأما الروح فتحيا بكل كلمة تخرج من فم الله (مت ٤ : ٤ ؛ تث ٨ : ٣) . لذلك فهي تجوع إلى كلمة الله التي تغذيها .

الذي يصوم ولا يتغذى بالروحيات ، يشعر بالجوع الجسدي .

أما الذي يتغذى بطعام الروح ، فلا يشعر سريعاً بجوع الجسد .

ولذلك فنحن في أيام البصخة المقدسة ، في أسبوع الآلام ، يكون صومنا الجسدي شديداً ، ومع ذلك لا نشعر بجوع الجسد ، لأننا نتغذى بالألحان الحزينة العميقة الأثر في النفس . ونتغذى بالقراءات المقدسة ، وبطقوس هذا الأسبوع ، وذكرياته ومشاعره وتأملاته .

ونفوسنا تجوع وتعطش إلى أمثال تلك الأيام المقدسة ، وما فيها من غذاء روحي مُشبع .

فهي لا تجوع وتعطش إلى الطعام ، بل على العكس ، تجوع وتعطش إلى الصوم ...

فرق كبير بين الجوع والعطش إلى الخبز والماء ، لقيام الجسد ... وبين الجوع والعطش إلى البر لغذاء الروح ، التي تتغذى أيضاً بالفضيلة كما تتغذى بالتأملات والألحان القراءات .

والروح تتغذى أيضاً بسر الافخارستيا ، لذلك تجوع إليه ...

وفى هذا يقول السيد المسيح : « أنا هو خبز الحياة » « أنا هو الخبز الذى نزل من السماء » « إن أكل أحد من هذا الخبز، يحيا إلى الابد » « والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » « مَن يأكل جسدى و يشرب دمى ، فله حياة أبدية ، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير» « مَن يأكل جسدى و يشرب دمى ، يثبت فيَّ وأنا فيه » (يو ٦ : ٣٣-٥٦) ...

طوبى للإنسان الذى يجوع إلى هذا السر المقدس ، ويجد غذاءه فيه ...

يجب أن يتناول ، لأن التناول يقدس قلبه وفكره ، ويجعله يستعد روحياً ، و يعطيه قوة للثبات فى الرب ، وحرصاً من السقوط ، وتدقيقاً فى حياته من أجل كرامة هذا السر العظيم . لذلك يجوع إليه ، و يشتاق قائلاً فى قلبه : متى أتناول من الجسد المقدس والدم الكريم ؟!

حياة الحب الإلهى :

الجوع والعطش إلى البر ، يعنيان الشوق إلى الله . لأنه لا يوجد بر أعظم من محبة الإنسان لله ..

وفى ذلك تقول عذراء النشيد : « أحلفكن يا بنات أورشليم ... إن وجدتن حبيبى أن تخبرنه بأنى مريضة حباً » (نش ٥ : ٨).. ما أعمق هذا الحب الذى يدغدغ الحواس والقلب ، فيشعر الإنسان أنه مريض حباً ...

فإن صلى ، لا تكون صلاته واجباً أو فرضاً ، بل تكون حديث الحب ، ومشاعر الحب ، صادرة من القلب ، وليس من مجرد الشفتين ...

فهو إنسان يعطش إلى الحديث مع الله ، و يرتوى بالصلاة .. يقول مع داود فى المزمور من فرط إشتياقه : « متى أقف وأتراءى أمام الله ؟ » .

هذا الإنسان المشتاق إلى الله ، له نفس الاشتياق إلى بيت الله . لذلك يقول مع داود النبى أيضاً :

« مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات . تشتاق وتذوب نفسي للدخول إلى ديار الرب » (مز ٨٣ : ١) .

هو إذن لا يذهب إلى بيت الرب ، كما هي عادة ، أو إداء لواجب روحي . إنما تشتاق وتذوب نفسي للدخول إلى ديار الرب . هذا هو الجوع وهذا هو العطش إلى المواضع المقدسة . لذلك يقول أيضاً : « فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب » (مز ١٢١ : ١) «طوبى لكل السكان فى بيتك ، يباركونك إلى الابد» «لأن يوماً صالحاً فى ديارك خير من آلاف» (مز ٨٣) . وهكذا قال داود أيضاً :

« واحدة طلبت من الرب ، وإياها ألتمس ، أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتي » (مز ٢٧) ..

ولعلك تسأل : ما هذا الطلب التى تشتاق إليها أيها الملك العظيم ، وعندك كل تنعمات الملوك ؟ لماذا تجوع وتعطش إليها ؟ ما الذى يغريك فيها ؟... وهنا يجيب : « لكى أنظر إلى نعيم الرب ، وأتفرس فى هيكله المقدس » ...

على أن هذا النبى العميق فى محبته لله ، لم يكن يشتاق فقط إلى بيت الله ، وإلى كلام الله ، وإلى الحديث مع الله ...

إنما كان يجوع ويعطش إلى الله نفسه ، فيقول :

« طلبت وجهك ، ولوجهك يارب ألتمس . لا تحجب وجهك عني » (مز ٢٧) .

هذه هي الروحانية السليمة التى يحياها مَن يحبون الله ، ويجوعون و يعطشون إليه .. إن كان الأمر هكذا ، فماذا نقول عن الذين لا يذهبون إلى بيت الله إلاّ بجهد كثير ، و بافتقاد لمرات عديدة ، و بطرق من الاقناع والالحاح ... أو ماذا نقول عن الذين لا يصلون ولا يقرأون الكتاب إلاّ بتغصب ، ولا يصومون إلاّ بقهر للإرادة وإخضاع للجسد ... ؟!

الروحيون يجوعون و يعطشون إلى الله ، لأنه هو شجرة الحياة ...

هو « الكرمة الحقيقة » (يو ١٥ : ١) . وهو عنقود الحياة . ونحن نعطش إلى الاتحاد به ، كالغصن بالكرمة ، تجرى فيه عصارتها فيحيا .

طعامنا هو أن نفعل مشيئته (يو ٤ : ٣٤) فتسر قلوبنا بارضائه ، مثلما يسر قلبه بطاعتنا ...

إن استمرار الجوع والعطش إلى البر ، يفهم منه أن المؤمن لا يمكن أن يصل فى روحياته إلى مرحلة اكتفاء ...

كلما يحيا مع الله ، يشعر بلذة روحية جديدة ، تلهبه باشتياق أكثر إلى حياة مع الله أعمق وأعمق ، فيستمر جائعاً وعطشاناً إلى مزيد من المتعة الروحية التى لا يمكن التعبير عنها ...

أليس فى الطعام المادى ، هناك أصناف يقول عنها البعض : هذا الصنف لا يمكن للإنسان أن يشبع منه مهما أكل ...! كم بالأكثر إذن الطعام الروحى ؟!

هل شبع واكتفى بولس الرسول ، على الرغم من كل الذى ناله فى حياة الروح ؟!

أما هو بعد أن أختطف إلى السماء الثالثة ، وسمع كلمات لا ينطق بها (٢ كو ١٢ : ٤) ، نراه يقول : « أيها الإخوة ، أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت . ولكنى أفعل شيئاً واحداً ، إذ أنا أنسى ما هو وراء ، وأمتد إلى ما هو قدام » (فى ٣ : ١٣) « أسعى لعلى أدرك ، الذى لأجله أدركنى أيضاً المسيح يسوع » ...

هذا السعى المستمر ، وهذه الرغبة فى الامتداد إلى قدام ، هما بلاشك الجوع والعطش إلى البر..

الحياة الروحية الحقيقية هى رحلة نحو الكمال . والكمال لا تبدو له حدود . لذلك فهى سعى دائم ، وشوق دائم إلى غير المحدود ، إلى المطلق ... بلا توقف ... إن كان ما نحصل عليه هنا هو مجرد مذاقة للملكوت . والمذاقة لا تشبع ، إنما تجعل الإنسان يجوع و يعطش بالأكثر إلى نوال ما قد ذاقه ... وليس هذا بالنسبة إليه فقط ، إنما يدعو الآخرين أيضاً :

« ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » (مز ٣٣) .

إن الاكتفاء فى الروحيات يوصل حتماً إلى الفتور .

الجوع والعطش إلى الصلاة

أما آباؤنا القديسون فما كانوا يكتفون مطلقاً ، إنما كانوا يهربون من الناس لكى يختلوا بالله . ينحلوا من الكل ، لكى يرتبطوا بالواحد . وكلما يتمتعون بحلاوة العشرة مع الله ، يزداد عطشهم إليه بالأكثر ، فتزداد وحدتهم ، وخلوتهم به ، وحديثهم إليه .

ولنا مثالان عظيمان : القديس أرسانيوس ، والقديس مكاريوس الاسكندرى :

كان القديس أرسانيوس صامتاً على الدوام ، لكى لا يقطع صلته بالله عن طريق الكلام مع الناس . كما كان يقضى الليل واقفاً فى الصلاة ، من غروب الشمس إلى أن تظهر أمامه مرة أخرى .

أما القديس مكاريوس الاسكندرى ، فقد دخل فى تدريب « صلب العقل » ، مانعاً عن عقله أى فكر آخر غير الله والإلهيات .

هذه هى أمثلة من الحب الإلهى ، يمكن أن نقول فيها :

« حلو اسمك ومبارك ، فى أفواه قديسيك » ...

إنها عبارة من ابصالية السبت فى التسبحة ، لعلها مأخوذة من قول داود النبى فى المزمور الكبير (مز ١١٩) :

« محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » .

إنه يجد لذة روحية فى اسم الله القدوس ، فيردده عن حب . وليس هو مجرد قانون فى الصلاة ، أو مجرد طقس أو فرض . إنما هى عاطفة ... جوع وعطش إلى هذا الاسم الذى يروى القلب وكل عواطفه ...

الجوع والعطش إلى الحب ، قد يسكبان الدموع أحياناً ..

ومن هنا قد يأتي البكاء فى الصلاة . بكاء الحب والشوق ، الذى يذكرنى بقصة يعقوب أبى الآباء ، حينما التقى بابنه يوسف ، بعد شوق عشرات السنوات ... يقول الكتاب فى ذلك إنه : «لما ظهر له ، وقع على عنقه ، وبكى على عنقه زماناً» (تك ٤٦ : ٢) .

إنها دموع من الفرح والشوق ، تتحدث عن جوع العواطف وعطشها ، بتعبير أقوى من اللغة والألفاظ .

أحياناً يكون الشوق الذى فى القلب ، أقوى من احتمال القلب ، فيبكى لأنه أقوى من احتمال العينين أيضاً .. إنه جوع أو عطش ، لا يجد ما يشبعه ولا ما يرو يه ، سوى الدموع ...

لعل كثيراً من دموع القديسين كانت عطشاً إلى الانطلاق نحو الله ، حيث تتمتع به فى الابدية ، بلا عائق .

فالجوع والعطش قد يعبران عن الشوق والحنين .

الإنسان الذى يصلى عن شوق ، غير الذى يصلى عن واجب . والذى يصوم عن شوق ، غير الذى يصوم عن واجب . وسأضرب مثلاً لكلٍ منهما :

إنسان روحى ، فى فترة الخماسين المقدسة ، حيث لا صوم ولا مطانيات . وهو مشتاق إليهما جداً ، وتمنعه قوانين الكنيسة ، ماذا يكون شعوره إذن حينما تنتهى أيام الخمسين و يأتى صوم الرسل ، بأى شوق سيصوم و يبدأ مطانياته ؟!..

أما المشتاق إلى الصلاة ، فعلامته أنه حينما يصلى : كلما جاء الوقت لإنهاء صلا ته لا يستطيع ...

فهو يؤجل إنهاء الصلاة ، متشبثاً بالله ، رافضاً أن يختم حديثه معه . محاولاً أن يزيد الصلاة بعض عبارات ... و يكون كطفل حان فطامه ، فهم ينزعونه من حضن أمه نزعاً ، وهو لا يريد . كل شوقه فى ثدى أمه ...

هذا المصلى ، حتى إن ختم صلاته فى وقفته الخاشعة ، تبقى روح الصلاة فى قلبه وفى فكره ...

حتى إن ترك البيت وخرج إلى الطريق ، تظل ألفاظ الصلاة تلاحقه وتجرى فى ذهنه .. وتستمر معه فى مشيته ، وفى جلسته ، وتتخلل عمله ، وتمنحه صمتاً مقدساً . ويكون مَن يحدثه كأنه ينزعه نزعاً من حضن أمه .. كما لو كان يوحنا الرسول فى حضن المسيح ، ويأتى مَن يأخذه منه ، ويقضى شيئاً يحتاجه الإخوة ... أو مثل مرثا تريد أن تنزع مريم من الجلوس عند قدمى الرب ...

أيضاً من علامات الجوع والعطش إلى الصلاة ، أن المصلى لا يكاد يشعر بشىء مما حوله ...

من فرط استغراقه فى الله ، لا يحس شيئاً حوله اطلاقاً ، مثل قصة القديس يوحنا القصير مع الجمّال ، الذى سأله أكثر من مرة ، وهو لا يسمع ماذا يقول .. !

كل حواسه فى الصلاة ، فهى غير متفرغة لشىء آخر ، كأنما ليس فى الوجود ، سوى الله وهو، فقط . كشخص جوعان ، يكاد يقتله الجوع ، ووجد أمامه وجبة شهية ...

إن الشخص العاطفى هو قريب إلى الله أكثر من غيره ...

لأنه إذ كوّن علاقة مع الله ، يسكب فيها عاطفته ، ولا تكون مجرد علاقة شكلية ، مثل أولئك الذين قال عنهم الرب : « هذا الشعب يكرمنى بشفتيه ، أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً » (مت ١٥ : ٨) .

ومن أهمية العاطفة ، نجد أن الزناة الذين تابوا اتجهوا إلى الله ، تحولوا بسرعة إلى قديسين . لأن عاطفتهم التى كانوا قد وهبوها قبلاً للخطية ، قدموها فى توبتهم كاملة إلى الله ، فعاشوا مع الله بكل العاطفة ، فصاروا قديسين ... يجوعون و يعطشون إلى الله ...

ولا يمكن أن يجوع الإنسان ويعطش إلى الله ، إن كانت محبة العالم فى قلبه .

فهو لا يستطيع أن يحب الله والعالم معاً . إما هذا وأما ذاك ، لأن « محبة العالم

عداوة لله » (يع ٤ : ٤) . فإن حورب الإنسان بخطية وأحبها ، يكون فى محبته لها ، غير مشتاق إلى الله ، غير جوعان وعطشان إليه ...

لذلك فالتوبة تسبق الجوع والعطش إلى الله ، ثم تصحبه فى الطريق . كما أن الجوع والعطش إلى الله يوصلان إلى التوبة .

فمتى نصل إلى هذه المشاعر كلها ؟ ... نحن الذين مايزال الله يقرع على أبوابنا فى الخارج ، ولم نفتح له بعد ... !

« طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، لأنهم يشبعون » .

لأنهم يشبعون :

يشبعون من الحب الإلهى ، من المتعة الروحية ، من التعزيات التى من فوق . هم يظهرون شوقهم إلى الله ، وشوق الله إليهم أكثر . لذلك يمنحهم حبه ، فيشعرون بمتعة العشرة مع الله ... أمور لا يُنطق بها ...

على أنى أقول إنه شبع مؤقت . إنه مجرد مذاقة .

« ذوقوا وانظروا » . كلما يكشف لهم الله ذاته ، و يفتح لهم قلبه و يعطيهم ... يجوعون و يعطشون بالأكثر إليه ... لأن الله لا يُشبع منه ...

أترانا فى الأبدية نصل إلى حالة الشبع ..

أم هو أيضاً شبع مؤقت يدفعنا إلى مزيد من الاشتياق ؟ وهل الاشتياق يشبعنا ، أم يدفعنا إلى مزيد من العطش ...

أنا فى الحقيقة لست أعلم ، الله يعلم ...

طوبى للرحماء

فإنهم يرحمون

الرحمة من صفات الله

الرحمة من صفات الله ، والإنسان الرحيم شبيه بالله .

لأنه قيل عن الله : « الرب رحيم ورؤوف ، طويل الروح وكثير الرحمة ... لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا . لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض ، قويت رحمته على خائفيه . كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا ... » (مز ١٠٣ : ٨-١٢) .

رحمة الله العجيبة ظهرت قوية على الصليب .

حيث حمل جميع خطايا الناس وغفرها لهم ... إنه الإله الرحيم الطيب ، الذى لا يشاء موت الخاطىء مثلما يرجع ويحيا (حز ١٨ : ٢٣) الذى حكم على أهل نينوى بالهلاك ، فلما ندموا « ندم على الشر الذى تكلم أن يصنعه بهم ، فلم يصنعه » (يون ٣ : ١٠) ... الله الذى يهدد أحياناً ، ثم يعود فيُغلب من تحننه .

وفى رحمة الرب ، قبل التائبين ، دون أن يوبخهم :

وفى الأصحاح ١٥ من الإنجيل للوقا البشير قدم ثلاث قصص عن قبوله للضالين والتائبين والتائهين : الخروف الضال ، والابن التائب ، والدرهم المفقود . وذكر كيف بحث عنهم . وكيف فرح بعودتهم ، دون أن يبكت أحداً .

وبنفس الأسلوب الرحيم قابل بطرس بعد القيامة ، ولم يجرح شعوره ، ولم يذكر له كيف أنكر وسب ولعن وقال لا أعرف الرجل . بل أعاده إلى رتبته الرسولية ، وقال له : « ارع غنمي . ارع خرافي » (يو ٢١) .

وفي رحمة الرب ، أشفق على الشعب في تشتته .

وعن هذا يقول الكتاب : « ولما رأى الجموع تحنن عليهم ، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها » (مت ٩ : ٣٦) . ونحن نصلي عن أمثال هؤلاء في تحليل نصف الليل ونقول : « اذكر يارب العاجزين والمنطرحين ، والذين ليس لهم أحد يذكرهم » .

ومن رحمة الله أنه معين مَنْ ليس له معين .

نقول له في صلواتنا : « يا معين مَنْ ليس له معين ، ورجاء مَنْ ليس له رجاء . عزاء صغيرى النفوس ، ميناء الذين في العاصف » .

أية رحمة أكثر من هذه ، يتصف بها الرب إلهنا !

والذى يعتني بأمثال هؤلاء ، إنما يتشبه بالرب .

ومن رحمته جعل الرحمة فوق العبادة ، فقال :

« إني أريد رحمة لا ذبيحة » (هو ٦ : ٦) .

في كل موضع ، وفي كل زمان ، عرف الناس عن الله صفة الرحمة هذه . حتى أن داود عندما خُيّر بين ثلاث عقوبات عرضها عليه ناثان النبى ، قال عبارته المشهورة :

« أقع في يد الله ، ولا أقع في يد إنسان ، لأن مراحم الله واسعة » (٢ صم ٢٤ : ١٤) .

إن في هذا عجباً .. الله القدوس ، الكامل في قداسته وصلاحه وبره : إذا وقعنا في يده يستر علينا ، ولا يعاملنا بحسب خطايانا . بل يستجيب لنا حينما نقول له : « كرحمتك يارب وليس كخطايانا » .. أما إذا وقعنا في يد إنسان ، فإنه لا يشفق ، بل يشهِّر بنا في كل مكان ! مع أنه يشابهنا في خطايانا وفي ضعفنا ..!

من أهمية الرحمة أن الله جعلها ميزاناً للدينونة :

ففى اليوم الأخير سيقول للذين على يساره : « إذهبوا عني يا ملاعين إلى النار المعدة لإبليس وملائكته » (مت ٢٥ : ٤١). فلماذا أصدر هذا الحكم؟ إنه يقول بعدها مباشرة : « لأنى جعت فلم تطعمونى . عطشت فلم تسقونى . كنت غريباً فلم تأوونى . عرياناً فلم تكسونى . مريضاً ومحبوساً فلم تزورونى » . و يفسر لهم هذا بقوله : « بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر، فبى لم تفعلوا » (مت ٢٥ : ٤٢-٤٥) .

إذن فهؤلاء هلكوا لعدم تقديمهم رحمة للمحتاجين .

ومعنى هذا أنه مهما كانت لك صلوات وتأملات وتسابيح ... ولم تكن رحيماً ، فلن تجد رحمة فى اليوم الأخير أمام الله الذى يقول : « أريد رحمة لا ذبيحة » (مت ٩ : ١٣). من أجل هذا ، تعلمنا الكنيسة أن نقول فى صلاة نصف الليل (الخدمة الثالثة) :

لأنه ليس رحمة فى الدينونة لمَن لم يستعمل الرحمة .

ولكن « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون » (مت ٥ : ٧) .

و يستخدم الله هذا الأسلوب فى المعاملة ، سواء كانت الرحمة فى أمور العالم المادية ، كالجوع والعطش والمرض ، أو فى المعاملات ، أو فى الأمور الروحية . وقد وضع فى كل ذلك حكماً قاطعاً قال فيه :

« بالكيل الذى به تكيلون ، يُكال لكم ويزاد » (مر ٤ : ٢٤) .

فإن كنت تكيل للناس بالرحمة ، يعاملك الله كذلك . وإن عاملت الآخرين بالقسوة، تكون مستحقاً لذلك أيضاً . و يقول الرب كذلك : « بالدينونة التى بها تدينون ، تدانون »(مت ٧ : ٢) أى بنفس الحكم ... لهذا ينصحنا الرب قائلاً « فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم » (مت ٧ : ١٢) ...

فإن كنت تريد أن تُعامل بالرحمة ، عامل غيرك بها .

الذى يرحم ، إنما يقرض الرب ، ويرسل رحمة تنتظره .

ولذلك يقول الكتاب : « طوبى لمَن يتعطف على المسكين ، فى يوم الشر ينجيه الرب » (مز ٤١ : ١) . ومن الناحية المضادة يقول أيضاً : « مَن يسد أذنيه عن صراخ المسكين ، فهو أيضاً يصرخ ولا يُستجاب » (أم ٢١ : ١٣) .

إن رحمتك للآخرين ، تسبقك وتتشفع فيك . فإن كنت تتراءف على غيرك ، يتراءف الله عليك . وإن كنت شديداً وعنيفاً ، فلا تحتج إن عوملت بنفس المعاملة .

ومن جهة المغفرة ، قال الرب بنفس القاعدة :

« لا تدينوا فلا تدانوا . اغفروا يُغفر لكم » (لو ٦ : ٣٧) .

وقال فى نفس الآية : « لا تقضوا على أحد ، فلا يقضى عليكم » وقال بعدها : « اعطوا تعطوا . كيلاً ملبداً مهزوزاً يعطون فى أحضانكم . لأنه بالكيل الذى به تكيلون ، يُكال لكم » (لو ٦ : ٣٨) . وقال الرب فى المغفرة أيضاً :

« فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أبوكم السماوى زلاتكم . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم ، لا يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى زلاتكم » (مت ٦ : ١٤ ، ١٥) .

فالذى لا يغفر ، إنما يمنع المغفرة عن نفسه ...

حتى إن كان قد أخذ مغفرة من قبل ، تسحب منه !

وفى هذا أعطانا الرب مثل المديونين (مت ١٨ : ٢٣ - ٣٥) . وملخصه أن السيد عفا عن مديون بعشرة آلاف وزنة ، وترك له الدين . فخرج هذا المديون ورأى رفيقاً له كان مديوناً له بمائة دينار . فلم يرحمه وألقاه فى السجن حتى يوفى الدين . فلما علم سيده بما حدث قال له : « أيها العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته لك ، لأنك طلبت إلىَّ . **أفما كان ينبغى أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك ، كما رحمتك أنا ؟!** وغضب سيده وسلمه للمعذبين ، حتى يوفى كل ما كان عليه » . وختم الرب هذا المثل بقوله : « فهكذا أبى السماوى يفعل بكم ، إن لم تتركوا من قلوبكم ، كل واحد لأخيه زلاته » (مت ١٨ : ٣٥) .

ومن أجل الرحمة ، فضّل الرب الرجل السامرى الغريب الجنس، على الكاهن واللاوى :

ربما يعتذر الكاهن بأنه كان عليه أن يرفع بخوراً أو يقدم ذبائح ، لذلك لم يكن لديه وقت للعناية بذلك المسافر الذى جرحه اللصوص وتركوه بين حي وميت ! وربما يعتذر اللاوى بخدمة بيت الرب . ولكن عذر كل منهما لم يكن مقبولاً ، لأن الله يريد رحمة لا ذبيحة (مت ١٢ : ٧) .

أما السامرى الصالح ، فقد صوبه الرب ، لأنه لما رأى ذلك الجريح « تحنن ، وتقدم وضمد جراحه ، واعتنى به » (لو ١٠ : ٣٣ ، ٣٤) . واعتبر أنه الوحيد الذى ينطبق عليه كلمة قريب « لأنه صنع رحمة » ...

تدخل الرحمة أيضاً فى أحكام الناس على غيرهم :

فهناك أشخاص أحكامهم قاسية وشديدة ، لا ترحم ، وقد تصل إلى مستوى الظلم . وربما تدخل فيها أيضاً شدة التوبيخ وكثرته ، بألفاظ جارحة ، وعدم تقدير للظروف ، مع تركيز شديد على الأخطاء . مثال ذلك أصحاب أيوب الذين لاموه بغير رحمة ، حتى قال لهم أيوب : « حتى متى تعذبون نفسى وتسحقوننى بالكلام . هذه عشر مرات أخزيتمونى » (أى ١٩ : ١ ، ٢) « أنا أيضاً أستطيع أن أتكلم مثلكم ، لو كانت أنفسكم مكان نفسى » (أى ١٦ : ٤) « تراءفوا تراءفوا أنتم علىّ يا أصحابى ، لأن يد الله قد مستنى » (أى ١٩ : ٢١) .

أما الإنسان الرحيم ، فإنه يعذر غيره ، لا يقسو عليه .

بدلاً من أن يشتد فى لومه ، يحاول أن يجد له عذراً .. والسيد المسيح كان هكذا . عندما نام تلاميذه فى أشد اللحظات حرجاً ، ولم يقدروا أن يسهروا معه ساعة واحدة ،

عذرهم قائلاً : « الروح نشيط . وأما الجسد فضعيف » (مت ٢٦ : ٤١) . وحتى وهو على الصليب ، بكل حنو قدم عذراً عن صالبيه . فقال : « يا أبتاه اغفر لهم ، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون » (لو٢٣ : ٣٤) .

والكنيسة فى صلاتها لأجل الراقدين ، تقدم عذراً عنهم :

فتقول : « إذ لبسوا جسداً ، وسكنوا فى هذا العالم » . وتقول : « لأنه ليس أحد بلا خطية ، وإن كانت حياته يوماً واحداً على الأرض » .

والقديس بولس الرسول طلب الرحمة للإخوة الذين لم يقفوا معه أثناء القبض عليه . فقال : « فى احتجاجى الأول ، لم يحضر أحد معى ، بل الجميع تركونى . لا يُحسب عليهم » (٢ تى ٤ : ١٦) .

لهذا كله ، يحب الناس أب الاعتراف المتصف بالرحمة :

يحبون أب الأعتراف الطيب ، الذى يراعى حالة المعترف النفسية وخجله وتعبه ، فلا يشتد فى توبيخه ، ولا يحتقر سقوطه ، ولا يشمئز مما يسمعه منه ، ولا يعامله بطريقة يمكن أن تحطم نفسيته ، بل يحنو عليه مهما سقط ، ويصلى من أجله طالباً له القوة والتوبة والمغفرة ، لأنه أب حنون يعرف ضعف الطبيعة البشرية وقوة العدو المحارب لها ...

بنفس الحنو عومل القديس موسى الأسود فى توبته :

رتب له الله أب اعتراف واسع الصدر جداً رفيقاً بالخطاة ، هو القديس ايسيذيروس القس ، احتضنه برفق فى بدء التوبة ، وقاده بهدوء حتى صار قديساً . وفى إحدى المرات أتاه موسى الأسود عشر مرات فى ليلة واحدة ، فلم يتبرم به . وإذ نصحه أن يلزم قلايته ، أجابه موسى : [لا أستطيع يا معلم..] إذ كانت الحرب شديدة عليه . ولكن بطول أناة أبيه الروحى ، رفع الله عنه القتال ، ونما فى الروح .

إن القلب الرحيم يشفق على الخطاة مهما سقطوا .

ويضع أمامه فى ذلك قول القديس بولس الرسول : « اذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم . واذكروا المذلين كأنكم أنتم أيضاً فى الجسد » (عب ١٣ : ٣) .

إن السيد المسيح فى رحمته أشفق على المرأة الزانية التى ضُبطت فى ذات الفعل، وأنقذها من راجميها، وقال لها: «ولا أنا أدينك. اذهبى ولا تخطئى أيضاً» (يو ٨: ١١). وكذلك دافع عن امرأة زانية أخرى، بللت قدميه بدموعها فى بيت سمعان الفريسى (لو٧: ٤٤).

ومن صفات القلب الرحيم أنه لا ينتقم:

إنه لا يكافىء الشر بالشر. بل يتبع قول الرب: «احسنوا إلى مبغضيكم» (مت ٥: ٤٤). هم كرهوكم، فلا تكونوا أنتم مثلهم. كانوا قساة عليكم، فلا تكونوا أنتم قساة عليهم. إن القسوة والانتقام لا يتفقان مع الرحمة...

القسوة:

القسوة ضد الرحمة. والقسوة على نوعين:

قسوة عل الناس، وقسوة على الله.

قسوة القلب على الناس معروفة، وهى معاملتهم بعنف أو بفظاظة أو بتعذيب أو بتجاهل... وما شابه ذلك. أما القسوة من جهة الله، فهى رفضه، وعدم الاستجابة لصوته فى القلب. ومثال ذلك أورشليم، التى كم من أنبياء أرسلهم الله إليها، فلم تقبلهم، بل رجمت منهم وقتلت، وبالتالى لم تستمع إلى صوت الله على ألسنتهم. وهكذا يقول الوحى الإلهى:

« إن سمعتم صوته، فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٣ : ٧).

ولعل فرعون كانت فيه القسوة بنوعيها:

كانت معاملته للناس قاسية. ولما طلبوا منه أن يخفف عبء العمل عليهم، أزاده ثقلاً. وأمر مسخريهم ألاّ يعطوهم تبناً لصنع الطوب اللبن، بل فليذهبوا ويجمعوا تبناً لأنفسهم، ولا ينقصوا شيئاً من مقدار إنتاجهم. فلما اشتكوا قال لهم: «متكاسلون أنتم متكاسلون» (خر ٥: ٦-١٧).

كذلك كان قلب فرعون قاسياً من جهة عدم استجابته لصوت الله على الرغم من العجائب التى صنعها موسى أمامه، وعلى الرغم من الضربات العشر...

إن روح الرب لا يمكن أن يسكن فى قلب إنسان قاسٍ .

لا يمكن أن يسكن فى قلب عنيد أو منتقم ، أو قلب لا رحمة فيه . لأن الكتاب يقول إنه من ثمر الروح محبة وفرح وسلام ولطف (غل ٥ : ٢٢) . وضد هذا كله العنف . فالقلب العنيف القاسى الشديد، لا يجد روح الله موضعاً له فيه...

والقديس اسطفانوس وبخ اليهود على قساوة قلوبهم :

وقال لهم : « يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان . أنتم دائماً تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك أنتم . أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ؟! وقد قتلوا جميع الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار، الذى أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه ... » (أع ٧ : ٥١ ، ٥٢) .

إن القساة بعد موتهم تتبعهم مناظر قسوتهم ...

كل مناظر التعذيب التى عذبوا بها الآخرين ، تتبعهم وتقف أمامهم ، وتتعبهم . ولا يستطيعون منها فراراً ... تذكرهم بأن قلوبهم كانت خالية من الرحمة ...

لا شك أن صورة هابيل أثناء قتله ، كانت تلاحق قاين وتتعبه ، ليس فقط فى السماء ، وإنما على الأرض أيضاً ... كما قال له الرب : « صوت دم أخيك صارخ من الأرض » (تك ٤ : ١٠) .

مَن الذين يرحمهم الله ؟

قلنا إن الرحمة صفة من صفات الله . . فمَنْ هم أولئك الذين يستحقون رحمة الله ؟

١ ـ أولاً : الله يرحم الذين يطلبون الرحمة من كل قلوبهم .

ولذلك فنحن نطلب الرحمة باستمرار فى كل يوم :

ففى مقدمة كل صلاة ، نصلى المزمور الخمسين الذى يبدأ بعبارة : « إرحمنى يا الله كعظيم رحمتك » ... كما أننا نختم كل صلاة من صلوات الأجبية بقطعة « إرحمنا يا الله ثم إرحمنا » .

وحينما ندخل إلى الكنيسة ونسجد قدام الهيكل ، نقول : « وأما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك ، وأسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك » (مز٥ : ٧) . وفى رفع بخور عشية وباكر ، يصلى الأب الكاهن لحن « أفنوتى ناى نان » أى (يا الله إرحمنا) . ويبدأ كل صلاة من صلوات الأجبية بعبارة « إبشويس ناى نان » أى (يارب إرحمنا) . ولعل هذه الصلوات مأخوذة من صلاة العشار : « اللهم إرحمنى أنا الخاطىء » (لو١٨ : ١٣) .

وفى كل صلاة نقول : « كيرياليصون » ٤١ مرة ، أى (يارب إرحمنا) .

فهل كل مَنْ يطلب الرحمة ينالها ؟ عملاً بقول الرب : « اسألوا ، تعطوا . اطلبوا ، تجدوا » (مت٧ : ٧) ... أم أن لنوال الرحمة شروطاً ؟ نعم ، لها شروط .

٢ ـ إن الله يرحم الذين يرحمون غيرهم ...

لذلك قال : « طوبى للرحماء ، فإنهم يرحمون » (مت ٥ : ٧) .

ولهذا أيضاً نقول فى صلاة نصف الليل : « لأنه ليس رحمة فى الدينونة ، لمَنْ لم يستعمل الرحمة » .

أما القساة الذين لا يرحمون ، فإنهم لا يستحقون رحمة الله .

وقد يتذكر القساة قسوتهم ، حينما يحتاجون إلى الرحمة فلا يجدونها .

إن إخوة يوسف الصديق ، لما وقعوا فى ضيقة فى مصر ، قالوا بعضهم لبعض : « حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ، ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة » . وأجابهم رأوبين معلقاً على كلامهم : « ألم اكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد ، وأنتم لم تسمعوا . فهوذا دمه يُطلب » (تك٤٢ : ٢١ ، ٢٢) .

وحينما دُبرت الحيلة ضدهم ، ووُجد كأس يوسف فى متاع بنيامين ، سجد يهوذا أمام يوسف وقال له : « بماذا نتبرر؟! الله قد وجد إثم عبيدك » (تك ٤٤ : ١٦) .

٣ ـ وعلى عكس ذلك يرحم الله المظلومين ، حتى دون أن يطلبوا ..

مجرد الظلم الذى يعيشون فيه ، يصرخ إلى الله طالباً عدله ... ولهذا قال الرب : « إنى قد رأيت مذلة شعبى... وسمعت صراخهم بسبب مسخريهم . إنى علمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم » (خر ٣ : ٧ ، ٨) . ولهذا أيضاً قال فى المزمور :

« من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين ، الآن أقوم ـ يقول الرب ـ أصنع الخلاص علانية » (مز ١١) .

نعم ، كما يقول الوحى الإلهى : « الرب يحكم للمظلومين .. الرب يحل المقيدين . الرب يقيم الساقطين . الرب يحكّم العميان ... الرب يحفظ الغرباء ، ويعضد اليتيم والأرملة » (مز ١٤٥) .

هؤلاء المظلومون ، يأخذ الرب لهم حقهم من ظالميهم :

نضرب مثالاً لذلك : القديس مقاريوس الكبير :

حدث فى أيام شبابه أن فتاة حملت سفاحاً . فلما ظهرت ثمرة خطيئتها ، أوعز إليها الشاب الذى أخطأ معها ، أن تلصق التهمة بمقاريوس المتوحد (قبل أن يذهب إلى الاسقيط) . فجاء الناس إليه وأهانوه إهانات مرّة . وكلّفوه أن ينفق على الفتاة وعلى ابنها حينما تلده . وهنا تدخل الله . وتعسرت الفتاة فى ولادتها جداً ، بعذابات شديدة ، فلم تجد طريقاً للخلاص سوى أن تعترف بأنها اتهمت ذلك البار ظلماً ...

ونابوت اليزرعيلى الذى ظلمه آخاب وإيزابل ، مثال آخر ...

لقد انتقم الرب لدمه ، وقال لآخاب على فم إيليا النبى :

« هكذا قال الرب : فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت ، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً » (١ مل ٢١ : ١٩) .

وأيضاً رحم الله مردخاى ، وانتقم له من ظالمه هامان .

وكان هامان قد أعدّ مؤامرة لمردخاى ، وأعدّ له خشبة إرتفاعها خمسون ذراعاً لكى يصلبه عليها . وفى نفس الوقت ، تدخل الرب وتكلم فى قلب الملك أحشويرش ، وكشف له ماضى مردخاى المجيد ، كما كشف له شر هامان . فأمر بأن يصلب هامان على الخشبة التى أعدها ذاك لمردخاى (أس ٧ : ٩ ، ١٠) .

ورحم الرب موسى وشعبه من قسوة فرعون .

وهكذا نجا موسى والشعب من عبودية فرعون الذى غرقت كل مركباته وجنوده فى البحر الأحمر ، وصنع الرب خلاصاً ...

ووقف الرب ضد هارون ومريم لما تقوّلا على موسى .

ودافع الرب عن موسى ، ورفع من شأنه أمامهما ، وبكتهما . وضرب الرب مريم بالبرص عقاباً لها ، ولم يسامحها على الرغم من شفاعة موسى فيها ، فحجزت خارج المحلة سبعة أيام ... (عد ١٢ : ١٩-٢٥) .

ومن الناحية الأخرى لم يقف الرب إلى جوار موسى لما استخدم العنف وضرب المصرى (خر ٢ : ١٤) .

وهناك أمثلة أخرى عديدة ، لوقوف الرب ضد الظالمين :

وقف الرب إلى جوار داود الصغير ضد شاول الملك ، لما حدث أن شاول ظلم داود وأراد قتله . وانتهى شاول ، وفارقه روح الرب (١ صم ١٦ : ١٤) . وانتصر داود أخيراً . ولكن داود لما أراد أن يقسو على نابال ، أرسل الله له إبيجايل لتبكته (١ صم ٢٥) .

ووقف الرب أيضاً ضد قايين لما قتل أخاه هابيل ، وعاقبه فصار تائهاً فى الأرض (تك ٤) .

إن الله يرحم الكل ، ولكنه لا يرحم الظالمين فى ظلمهم. بل بالكيل الذى يكيلون يكال لهم (مت ٧ : ٢) .

ولعل عقوبات الله لهم تكون درساً حتى يرجعوا عن قساوة قلوبهم وعن ظلمهم للغير. فإن عاندوا يصيرون درساً لغيرهم .

لذلك كن فى حياتك مظلوماً لا ظالماً ، ومصلوباً لا صالباً .

٤ - ويرحم الرب الضعفاء والمطرودين والمنبوذين والمنسحقين بقلوبهم :

كان الرب إلى جوار العشار المنسحق القلب ، فخرج مبرراً دون ذلك الفريسى المنتفخ الذى يدين غيره (لو١٨ : ١٤) .

ووقف أيضاً إلى جوار زكا الذى ببساطة صعد على الجميزة لكى يراه ، ولم يستمع للذين قالوا إنه رجل خاطىء (لو١٩ : ٦، ٧) .

ورحم الله المرأة الخاطئة الذليلة المضبوطة فى ذات الفعل ، وبكت القساة الذين أرادوا رجمها قائلاً لهم : « مَنْ كان منكم بلا خطية ، فليرمها أولاً بحجر » (يو٨ : ٧) .

٥ - ويرحم الله الذى ليس له أحد يرحمه .

كما رحم مريض بيت حسدا ، الذى قضى ٣٨ سنة فى مرضه وليس له إنسان يلقيه فى البركة (يو٥ : ٧) .

ولذلك نقول عن الرب فى صلواتنا إنه معين مَنْ ليس له معين ، ورجاء مَنْ ليس له رجاء . وهكذا رحم لوطاً لما هجم أهل سادوم على بيته (تك ١٩) .

ومن رحمة الله أنه يتدرج معنا حسب طاقتنا .

لا يشاء أن نجرب فوق ما نطيق ، بل يعطى مع التجربة المنفذ (١ كو١٠ : ١٣) . وهو يسقينا لبناً لا طعاماً إن كنا لا نحتمل (١ كو٣ : ٢) . وفى وصيته يقول فى حنان : « إن كان ممكناً ، فحسب طاقتكم ، سالموا جميع الناس » (رو١٢ : ١٨) .

ليتنا نتعلم من الله الرحمة ونكون رحومين .

لأنهم يعاينون الله

مكافأة عظيمة :

لابد أن نقاوة القلب لها قيمتها العظيمة، لأن مكافأتها متميزة جداً عن باقى مكافآت التطو يبات الأخرى ...

ففى المكافآت الأخرى يقول : « لأنهم يتعزون »، «لأنهم يرثون الأرض»، «لأنهم يشبعون»، «لأنهم يرحمون» ... أما فى هذه فإنه يقول : «لأنهم يعاينون الله» أى يرونه، أى يتمتعون به. فالفضيلة التى مكافأتها رؤية الله، لابد أن تكون عظيمة جداً.

إذن رؤية الله ليست لكل أحد. إنها للانقياء، للبسطاء.

ليس الكل يعاينون الله :

حدث فى إحدى المرات أن القديس بساريون قام بهداية امرأة زانية إلى التوبة، وأخرجها من مكان الخطية الذى كانت تعيش فيه. وذهب إلى القديس أنطونيوس ليسأله هل قبل الله توبة هذه المرأة؟ فصاموا أياماً وصلوا، ليعرفوا مشيئة الله فيها. وكان أن الله كشف الأمر للقديس بولس البسيط. رأى حفلاً كبيراً وعروشاً بينها كرسى عظيم لا يجلس عليه أحد. وهناك ملاك يعرّفه بالجالسين. فلما وصل للعرش الذى لا يجلس عليه أحد. سأله الملاك : [ترى لمَنْ هذا العرش؟] فأجاب القديس بولس : [لعله لأبى القديس أنطونيوس]. فأجابه الملاك : [كلا، إنه للخاطئة التى تابت على يد الأنبا سرابيون]. وهكذا نرى أن القديس بولس بسبب بساطته، استحق أن يكون الشخص الذى يكشف له الله مشيئته ...

ليس الكل يعاينون الله . نرى هذا واضحاً فى قصة هداية شاول الطرسوسى :

شاول رأى السيد المسيح فى طريق دمشق . أما المسافرون معه فكانوا « لا ينظرون أحداً » (أع ٩ : ٧) . وسمع شاول صوت الرب يكلمه . أما المسافرون معه فيقول عنهم كانوا : « يسمعون الصوت » ، صوت بولس ولكنهم لم يسمعوا صوت الذى يكلمنى » (أع ٢٢ : ٩) . إن رؤية الرب وسماع صوته مكافأة روحية ليست لكل أحد . نفس الأمر نراه فى مواضع كثيرة فى الكتاب المقدس :

إن الرب كلم صموئيل الطفل ، ولم يكلم عالى الكاهن :

هذا الطفل فى نقاوة قلبه ، استحق أن يتحدث إليه الرب ، و يبلغه رسالة يقولها لعالى الكاهن .. (١ صم ٣ : ١-١٤) دون أن يكلم الرب عالى مباشرة ، إذ كان لا يستحق ذلك ، بل كان فى موقف المعاقبة ...

إن الأشرار لهم عيون ، ولكنها لا تبصر ...

لا يستحقون رؤية الرب . وهذه عقوبة عظمى لهم . إنهم فى الظلمة الخارجية (مت ٢٥ : ٣٠) . عيونهم لا ترى الله . وأرواحهم لا تبصره ولا تحسّه .

ونحن نقصد بالرؤية فى كل ما سبق ، رؤية المتعة الروحية .

وكذلك فى الحديث وسماع صوت الرب . فقد تكلم الرب مع الحية القديمة وعاقبها (تك ٣) وتكلم مع الشيطان كما يروى سفر أيوب (أى ١ ، ٢) . وتكلم مع قايين وعاقبه على قتله (تك ٤) . كما تكلم مع الشيطان أيضاً على جبل التجربة (مت ٤) . ولكن كل ذلك لم يكن فى مجال المتعة الروحية . فالأشرار إن التقوا بالله لا يكون لقاء متعة بل كما يقول الكتاب :

« مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١) .

وعن ذلك يقال أيضاً فى المجىء الثانى : « هوذا يأتى على السحاب ، وستنظره كل عين ، والذين طعنوه ، و ينوح عليه جميع قبائل الأرض » (رؤ ١ : ٧) . إذن هؤلاء الذين طعنوه سيرونه و ينوحون . بل إنهم « سيقولون للجبال غطينا ، وللتلال اسقطى علينا » (هو ١٠ : ٨ ؛ لو ٢٣ : ٣٠) .

العقل الذى يحاول أن يفحص كل شيء ، وأن يخضع الرؤية للحواس قد لا يرى شيئاً ، بعكس الإنسان البسيط ..

إن الله قد تراه بروحك ، أكثر مما تراه بعينيك . وقلبك الذى يصدق رؤيته و يتعلق بها ، هذا قد يراه ، بعكس العقل الدائم الفحص الذى يريد أن يخضع رؤية الله لفكره . لذلك قد يكون إثنان أمام منظر روحى : أحدهما يراه ، والآخر لا يرى . وغالباً ما يراه الإنسان البسيط ، النقى القلب ... أو الإنسان المضغوط المحتاج إلى الله ...

أحياناً ترتبط رؤية الرب بالألم ، الألم الذى ينقى القلب .

وهكذا كان الرب يظهر للشهداء والمعترفين فى عمق آلامهم وعذاباتهم ، فى وقت كانت فيه قلوبهم نقية تماماً من كل محبة العالم وإغراءاته ، ومستعدة للقاء الرب .

وكان الرب يظهر للمظلومين وهم فى عمق الألم أو الاضطهاد الذى ينقى قلوبهم ، كما حدث بالنسبة إلى أبينا يعقوب أبى الآباء وهو هارب من أخيه عيسو (تك ٢٨) .

فى الضيقات كثيراً ما نرى الله ، نراه فى عمله . ولا تشترط لذلك رؤية مادية ...

إن داود الهارب المطرود يتغنى بالرب و يقول : « جميع عظامى تقول يارب مَنْ مثلك ؟! المنقذ المسكين ممَنْ هو أقوى منه ، والبائس من سالبه » (مز ٣٥ : ١٠) . و يقول داود أيضاً : « تأملت فرأيت الرب أمامى فى كل حين . إنه عن يمينى لكى لا أتزعزع » (أع ٢ : ٢٥) . وطبعاً لم يكن داود يرى الرب أمامه فى كل حين برؤية مادية ، إنما كان قلبه النقى يشعر بهذه الرؤية ، دون أن يخضعها للحواس . لذلك يقول أيضاً :

« ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » (مز ٣٤ : ٨) .

وطبعاً هذا النظر وهذه المذاقة خارج نطاق الحواس ... وهى متعة روحية أن يرى الله فى حياته و يتمتع به . يراه فى حل مشاكله ، و يراه فى إنقاذه من أعدائه ، و يراه فى كل خير وكل بركة . و يكاد يلمس يد الله لمساً ... إنه الإيمان .

رؤية الله في الأبدية :

وعبارة « لأنهم يعاينون الله » تعنى معنى آخر وهو :

رؤية الله ومعاينته فى الأبدية ، خارج الجسد المادى .

وهذا ما قصده أيوب الصديق حينما قال : « أما أنا فقد علمت أن وليى حىّ ، والآخر على الأرض يقوم . وبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى أرى الله . الذى أراه أنا لنفسى ، وعيناى تنظران » (أى ١٩ : ٢٥-٢٧) .

معاينة الله ورؤيته فى الأبدية ، أمر تحدث عنه الكتاب كثيراً . وفى ذلك قال القديس بولس الرسول :

« إننا ننظر الآن فى مرآة ، فى لغز ، ولكن حينئذ وجهاً لوجه » (١ كو١٣ : ١٢) .

ويتابع كلامه فيقول : « الآن أعرف بعض المعرفة . لكن حينئذ سأعرف كما عُرفت » . وهنا نرى الارتباط بين رؤية الله ومعرفة الله .

والقديس بولس يقول فى رسالته الثانية إلى كورنثوس : « وأما الرب فهو الروح ... ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف ، كما فى مرآة ، نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد » (٢ كو٣ : ١٧ ، ١٨) .

إذن سنعاين الله فى الأبدية ، بالأجساد الروحانية .

حينما نخلع هذا الجسد المادى ، الجسد الترابى الفاسد ، ويلبس الفاسد عدم فساد ، ونقوم بأجساد روحانية ، نقية ، يمكنها أن ترى الله ...

ولكن رؤية الله يشترط لها الرب نقاوة القلب . فلماذا نقاوة القلب بالذات ؟ وكيف تكون هذه النقاوة ؟ وكيف تأتى ؟

نقاوة القلب :

كلمة القلب هنا لها أهمية خاصة ، لأن الرب يريد القلب بالذات ، ويقول : « يا ابنى اعطنى قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) . ويقول أيضاً : فوق كل تحفظ إحفظ قلبك ، لأنه

منه مخارج الحياة» (أم ٤ : ٢٣). والسيد المسيح يقول إن: «الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح. والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر» (لو ٦ : ٤٥). و يقول أيضاً إنه: «من فضلة القلب يتكلم الفم» (لو ٦ : ٤٥).

لذلك فإن النقاوة الخارجية ليست هي كل شيء..

قد يحفظ الإنسان حواسه نقية، فلا يخطيء بالنظر ولا باللمس ولا بالسمع، ومع ذلك قد لا يكون قلبه نقياً! وكما يقول القديس جيروم: [هناك أشخاص بتوليون بأجسادهم، ولكن أرواحهم زانية] أى أن الزنا فى قلوبهم مع أن أجسادهم لم تخطيء عملياً. وكذلك قد لا يخطيء الإنسان بلسانه، ولكن قلبه قد لا يكون نقياً، و يوجد فيه الغضب والحقد والإدانة والانتقام، و يصدّر كل هذا إلى فكره، فيتدنس فكره أيضاً ...

هذا من الناحية السلبية. ومن الناحية الإيجابية يقول الرب:

«يقترب إلىّ هذا الشعب بفمه، ويكرمنى بشفتيه. أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً» (مت ١٥ : ٨؛ مر ٧ : ٦).

لقد انتقد الرب الكتبة والفريسيين لأنهم «لعلة يطيلون صلواتهم» (مت ٢٣ : ١٤). ومع طول صلواتهم ليست قلوبهم مع الله. وبنفس الوضع هناك مَنْ يصومون، و يذللون أجسادهم، بل يقدمون الجسد ليحترق، والقلب ليس فيه محبة لله (١ كو ١٣ : ٣).

القلب النقى ليس هو فقط الطاهر من الخطية ...

إنما هو القلب الذى توجد فيه محبة الله:

ومن هذه المحبة تنبع جميع الفضائل. فالفضائل ليست مجرد مظاهر خارجية، إنما هى تعبير عن المحبة التى فى القلب من نحو الله والناس. هذه المحبة التى قال عنها الرب إنه يتعلق بها الناموس كله والأنبياء (مت ٢٢ : ٤٠).

والقلب النقى يبدأ بحياة التوبة ...

وعن هذه النقاوة يقول الرب فى سفر حزقيال النبى: «إطرحوا عنكم كل معاصيكم التى عصيتم بها، واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة» (حز ١٨ : ٣١). ويقول الرب أيضاً: «وأرش عليكم ماء طاهراً فتطهرون من كل نجاساتكم. ومن كل أصنامكم أطهركم. وأعطيكم قلباً جديداً، وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم. وأنزع قلب الحجر من لحمكم، وأعطيكم قلب لحم. وأجعل روحى فى داخلكم. وأجعلكم تسلكون فى فرائضى..» (حز ٣٦ : ٢٥-٢٧).

هذا هو القلب النقى الذى يريده الله، وبه نعاين الله. وهذا هو القلب الذى طلبه داود فى توبته قائلاً:

قلباً نقياً إخلق فىَّ يا الله. وروحاً مستقيماً جدده فى أحشائى (مز ٥٠).

إنه القلب الذى لا يحب الخطية ولا يشتهيها، وبالتالى لا يفعلها. ولذلك لما قال الله: «يا ابنى اعطنى قلبك»، قال بعدها مباشرة: «ولتلاحظ عيناك طرقى» (أم ٢٣ : ٢٦). لأنك إن أعطيت للرب قلبك، سيكون حفظ الوصايا أمراً لاحقاً وطبيعياً لا تبذل فيه مجهوداً. ذلك لأن القلب النقى سيحب الفضيلة، ويحب طريق الرب ويسلك فيه عن رضى. بل تكون حياة البر هى شهوة قلبه.

نقاوة القلب وبساطته كانت هى صفة الإنسان الأول.

كان آدم وحواء نقيين بسيطين، لا يعرفان شراً. كانا عريانين وهما لا يخجلان (تك ٢ : ٢٥)، بل وهما لا يشعران بذلك. كان قلبهما طاهراً لا يرى فى هذا العرى شراً. وكما يقول الكتاب: «كل شىء طاهر للطاهرين» (تى ١ : ١٥).

إذن بنقاوة القلب، يريد الله أن نرجع إلى حالتنا الأولى التى خلقنا الله عليها، حينما كنا صورة الله ومثاله ... وإن لم نستطع، فعلى الأقل نقترب إلى هذه الصورة عينها على قدر طاقتنا ...

ونقاوة القلب هذه، سنحصل عليها فى الأبدية، فنكون كملائكة الله فى السماء (مت ٢٢ : ٣٠).

وبهذه النقاوة يمكننا أن نعاين الله . لذلك نحن نصلى ونقول : إن لم تكن لنا يارب هذه النقاوة التى نعاينك بها ، وإن لم نستطع أن نصل إلى هذه النقاوة ، فامنحنا إياها كعطية من عندك . أو امنحنا عربون هذه النقاوة ومذاقها ، واكملها لنا فى ملكوتك ، حتى نستطيع أن نراك .

القلب النقى لا يحب العالم ، ولا الأشياء التى فى العالم (١ يو ٢ : ٥) .

لأنه « إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » (١ يو ٢ : ١٥) . ولأن « محبة العالم هى عداوة لله » (يع ٤ : ٤) . وهذا الذى لا يحب العالم ، والذى يكون قلبه قد مات عن محبة العالم ، يصبح قلبه مملوءاً من محبة الله وحده ، ولا يكون هناك منافس لله فى قلبه . إنه يقول للرب مع الرسول :

« قد تركنا كل شىء وتبعناك » (مت ١٩ : ٢٧) .

حقاً ان القلب النقى لا يعبد سيدين ، فقلبه خالص لله . إن أحب أحداً أكثر منه ، فلا يستحقه (مت ١٠ : ٣٧) . وهكذا يتنقى القلب الطاهر من الشهوات . وكل محبة بريئة تكون داخل محبة الله ، ولا تكون منافسة لمحبة الله .

والقلب النقى تكون ألفاظه وكلماته نقية :

وذلك لأنه من فضلة القلب يتكلم اللسان (لو ٦ : ٤٥) . وداود النبى قد قال : « فاض قلبى بكلام صالح » (مز ٤٥ : ١) . فلا يجوز إذن أن يغضب إنسان و يتكلم بكلام خاطىء . ثم يعتذر له أحدهم و يقول : [ولكن قلبه أبيض] . فالقلب الأبيض ، ألفاظه بيضاء ، والإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح .

والقلب النقى هو أيضاً قلب متسع ، للكل ...

إنه لا يضيق بكلمة ، ولا يضيق بمشكلة ، ولا يضيق بأحد .

وما أجمل قول بولس الرسول فى معاتبته للكورنثيين إذ قال لهم : « فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون . قلبنا متسع . لستم متضيقين فينا بل متضيقين فى أحشائكم . فلذلك أقول كما لأولادى : كونوا أنتم أيضاً متسعين » (٢ كو ٦ : ١١-١٣) .

انظروا إلى الله ، وكيف يتسع قلبه للكل ...

كيف يشرق بشمسه على الأشرار والصالحين ، وكيف يمطر على الأبرار والظالمين (مت ٥ : ٤٥) . وكيف يتسع صدره لإبقاء الملحدين وعبّاد الأصنام على الأرض ، بل ويبقى الشيطان حتى الآن دون أن يبيده ...؟! وكيف يتسع صدر الله للمغفرة ، حتى يقول داود النبى فى ذلك : « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا ... كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا » (مز١٠٣ : ١٠ ، ١٢) .

بل لننظر أمثلة من سعة القلب عند البشر الأنقياء .

يقول الكتاب عن موسى النبى : « وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » (عد ١٢ : ٣) . يقول عن سليمان الحكيم : « وأعطى الرب سليمان حكمة وفهماً كثيراً جداً ، ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطىء البحر » (١مل ٤ : ٢٩) ... أترى لك رحبة القلب هذه ؟

والقلب النقى لا شك له ثمر الروح .

ذلك الذى قال عنه الرسول : « وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام ، طول أناة لطف صلاح إيمان ، وداعة تعفف » (غل ٥ : ٢٢ ، ٢٣) . فينبغى أن يكون لك كل هذا ، حتى يمكنك أن تعاين الله .

لا أريد أن اسهب الآن فى الحديث عن نقاوة القلب ، فيمكنك أن تقرأ عنها بالتفصيل فى كتابنا (حياة التوبة والنقاوة) . فإن تدربت على نقاوة القلب هذه ، تستحق تلك المكافأة « طوبى لأنقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله » .

طوبى لصانعي السلام

لأنهم أبناء الله يدعون

معنى صانعي السلام :

لها معنى مثلث : الذين يصنعون السلام بين الله والناس ، ويصنعون سلاماً بين الناس وبعضهم البعض ، ويصنعون سلاماً فى داخل قلوبهم هم ، ومع الله والناس ، وسلاماً بين الروح والجسد فلا يصارع أحدهما الآخر.

١ - فى صنع السلام بين الله والناس ، يقودون الناس إلى الإيمان وإلى التوبة ويهيئون لله شعباً مستعداً . وفى ذلك قال القديس بولس الرسول : « واعطانا خدمة المصالحة ... إذن نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا ، نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ ، ٢٠) .

٢ - وفى صنع السلام بين الناس ، نتخذ طريقين : أولهما أننا لا نكون سبب خصومة بين الناس ، أو سبباً لزيادة الخصومة . وثانيهما أننا نشترك فى فض الخصومات وإرجاع المحبة .

٣ - أما السلام داخل نفوسنا ، فهو أن نتخلص من كل إنقسام أو صراع داخلى . ولا تكون شهواتنا ضد روحياتنا ، ولا تكون أجسادنا فى رغبات ضد أرواحنا . ولا تكون أفكارنا منقسمة علينا ، ولا نكون مضطربين من الداخل ، متحيرين مترددين بين طرق كثيرة .

وكل هذه الأنواع الثلاثة من صنع السلام ، نود أن نتحدث عنها بالتفصيل فى هذا الفصل ، حسبما يتسع لنا المجال .

أول مَنْ أثار الخصومة بين الله والناس ، هو الشيطان .

وبالخطية وكسر الوصية ، حدثت الخصومة . ووجد فى الهيكل الحائط المتوسط الذى يفصل الناس عن قدس الأقداس ، هذا هو الحجاب (عب ٩ : ٣) . وكان لابد من نقض هذا الحائط المتوسط ، لكى تكون لنا ثقة بالدخول إلى الأقداس (عب ١٠ : ١٩) .

كانت ذبيحة المحرقة ترمز إلى إرضاء قلب الله الغاضب بسبب خطايانا ، لذلك كانت كلها لله .

ما كان يتناول منها أحد : لا مقدمها ، ولا أصدقاء له ، ولا الكاهن ، وإنما تظل تشتعل فيها النار نهاراً وليلاً ، حتى تتحول إلى رماد . وكانت النار ترمز إلى عدل الله . وتحوّل المحرقة إلى رماد ، يرمز إلى استسلام الذبيحة حتى المنتهى ، إلى أن يستوفى الله عدله إلى التمام... (لا ٦ : ٨-١٣) . ولذلك قيل عن المحرقة إنها :

« محرقة وقود ، رائحة سرور للرب » (لا ١ : ٩ ، ١٣ ، ١٧) .

وكانت هناك أيضاً ذبيحة الخطية ، وذبيحة الإثم ، رمزاً لوفاء العدل الإلهى ، لأنه « بدون سفك دم لا تحدث مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) . كان الدم يوفى حكم الموت ، إذ أن « أجرة الخطية هى موت » (رو ٦ : ٢٣) . ولكن دم الحيوانات كان مجرد رمز للمسيح ...

ولقد قام السيد المسيح بالمصالحة بين الله والناس .
وكان ذلك على الصليب ، بعمل الكفارة والفداء ...

وفى هذا يقول الرسول : « إن كنا ونحن أعداء ، قد صولحنا مع الله بموت ابنه ، فبالأولى ونحن مصالحون نخلص بحياته » (رو ٥ : ١٠) . وقال إن الله : « صالحنا

لنفسه بيسوع المسيح » وأنه « كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم » (٢ كو ٥ : ١٨ ، ١٩). وقال القديس بولس : « أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين ، صرتم قريبين بدم المسيح ، لأنه هو سلامنا ، الذى جعل الاثنين واحداً ، ونقض حائط السياج المتوسط ، أى العداوة » (أف ٢ : ١٣-١٥). وقال : « عاملاً الصلح بدم صليبه » (كو ١ : ٢٠).

إننا نشكر السيد المسيح الذى صنع سلاماً بين الله والناس ، كابن لله ، وابن للإنسان.

ولذلك نسميه ملك السلام . وننشد له قائلين : « يا ملك السلام اعطنا سلامك » . ويقول عنه سفر إشعياء النبى إنه : « رئيس السلام » (إش ٩ : ٦). وعندما بشرت الملائكة بمولده قالت : « وعلى الأرض السلام » (لو ٢ : ١٤).

وقبل أن يصنع هذا السلام ، كنا أبناء الغضب .

وفى ذلك يقول الرسول : « كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا ... وكنا بالطبيعة أبناء الغضب ... ونحن أموات بالخطايا ، أحيانا مع المسيح ... وأقامنا معه وأجلسنا معه فى السموات » (أف ٢ : ١-٦).

ولكن السيد المسيح نجانا من الغضب ، وصالحنا مع الله . ودفع عنا الثمن . وبهذا نتغنى فى القداس الغريغورى : « والحاجز المتوسط نقضته ، والعداوة القديمة هدمتها . وصالحت السمائيين مع الأرضيين ، وجعلت الاثنين واحداً . وأكملت التدبير بالجسد » .

السيد المسيح كان الوحيد الذى صنع سلاماً بين الله والناس بالمعنى الكفارى الفدائى . ونحن يمكننا أن نصنع سلاماً بمعنى آخر.

وذلك بقيادة الناس إلى حياة الإيمان والتوبة ، مثلما قال السميح : « عرّفتهم اسمك وسأعرّفهم » ، « الكلام الذى أعطيتنى ، قد أعطيتهم » (يو ١٧ : ٢٦ ، ٨)... وهكذا نجعلهم يعرفون الله ، ويحبونه و يثبتون فيه . نكرز لهم ، نقوم بخدمة الكلمة (أع ٦) وخدمة المصالحة (٢ كو ٥). ونتذكر فى كل ذلك قول الرسول :

«مَنْ ردّ خاطئاً عن طريق ضلاله ، ينقذ نفساً من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥ : ٢٠) .

ومن هنا تبدو أهمية الخدمة ، والتعليم والافتقاد ، والجلسة الفردية ، والسعى فى جعل الناس يحبون الله والدين والكنيسة . وكما قال القديس بطرس الرسول : « نائلين غاية إيمانكم ، خلاص النفوس » (١ بط ١ : ٩) .

إن المسيح هو ابن الله . وهو بهذه الصفة قد صنع سلاماً بين الله والناس . فإن سلكت فى نفس طريق السلام مثله - فى مجالك الخاص - تدعى أنت أيضاً ابن الله ، بمعنى آخر...

إن كان الأمر هكذا ، فماذا نقول عمَنْ يفعل العكس ، ويعثر الآخرين ، ويبعدهم عن طريق الرب ، ويكون مطالباً بدمهم أمام الله ؟!

مثال ذلك : مَنْ ينشر البدع والهرطقات ، ومَنْ يشكك الناس فى الدين ، وفى الفضيلة ، وفى الروح ، وفى الخلود ... أو مثال ذلك مَنْ يقود غيره فى طريق الإباحية واللهو والعبث ، باسم الحرية الشخصية !! وعلى شاكلة هؤلاء كل مَنْ تكون عشرته سبباً فى ضياع العشرة مع الله ...

السلام بين الناس :

جاء السيد المسيح أيضاً فصنع سلاماً بين الناس ، أوله هو ذلك السلام بين اليهود والأمم ، وبين اليهود والسامريين ..

جاء يدعو الأمم إلى رعوية الله ، ويلغى فكرة الشعب المختار ، ويمدح قائد المائة الأممى ، ويمدح المرأة الكنعانية ، ويقول إنه لم يجد فى إسرائيل كله إيماناً بمقدار هذا (مت ٨ : ١٠ ؛ لو ٧ : ٩) . ونراه أيضاً قد بشر فى السامرة . وقال لتلاميذه : « وتكونون لى شهوداً فى أورشليم وكل اليهودية وفى السامرة وإلى أقصى الأرض » (أع ١ : ٨) . « إذهبوا إكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » (مر ١٦ : ١٥) . « إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم ... » (مت ٢٨ : ١٩) ...

لهذا كله نجد بولس الرسول يقول للأمم :

« كنتم ... بدون مسيح : أجنبيين عن رعوية إسرائيل ، وغرباء عن عهود الموعد ، لا رجاء لكم ... ولكن الآن صرتم قريبين ... لستم إذن بعد غرباء ونزلاء ، بل رعية مع القديسين ، وأهل بيت الله » (أف ٢ : ١٢ ، ١٣ ، ١٩) .

وصالح اليهود مع السامريين . وضرب لذلك مثل السامرى الصالح ، واعتبر أنه القريب الحقيقى . وتكلم مع المرأة السامرية ، وأيضاً صالح المتمسكين بالدين مع الطوائف المحتقرة منهم مثل العشارين والخطاة ، وضرب مثل الفريسى والعشار ، ليريهم أن العشار المحتقر خرج مبرراً دون ذاك (لو١٨ : ٩-١٤) .

وطلب إلينا أن نكون فى صلح دائم مع الناس ، حتى الأعداء .

فقال : « كن مراضياً لخصمك سريعاً ، مادمت معه فى الطريق ... مَنْ أراد أن يخاصمك و يأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً . مَنْ سخرك ميلاً فامش معه ميلين ... أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم .. لا تقاوموا الشر » (مت ٥ : ٣٨-٤٤) .

و يقول لنا معلمنا بولس الرسول : « إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس ... لا تجازوا عن شر بشر ... إن جاع عدوك فاطعمه ، وإن عطش فاسقه » (رو١٢ : ١٧-٢٠) .

بولس الرسول نفسه صالح بين فليمون وانسيموس ، وطالب فليمون أن يعامل عبده كأخ محبوب ، وقال له : «اقبله نظيرى . وإن كان قد ظلمك بشىء ، أو لك عليه دين ، فاحسب ذلك علىَّ . أنا بولس كتبت بيدى . أنا أوفى » (فل ١٦-١٩) .

وعملت المسيحية على أن تمنع الحروب والشقاقات . وقد وبخ القديس بولس أهل كورنثوس إذ وجد بينهم شقاقات وخصومات (١ كو١ : ١٠ ، ١١) .

ودعت المسيحية إلى حياة المحبة الكاملة ، وإلى حياة البذل ، واعتبرت مَنْ يبغض أخاه كأنه قاتل نفس ، بل دعت وشرحت فناء الأمور المادية العالمية التى بسببها تحدث شقاقات بين الناس ...

لذلك على كل إنسان أن يصنع سلاماً على قدر طاقته .

ولعل من أهم وسائل السلام بين الناس عدم توصيل كلام المذمة .

لأن مَنْ يفعل ذلك يكون كمَنْ يشعل ناراً بين الناس ، وكمَنْ يغرس أصول الكراهية والحقد ، و يقضى على السلام . فإن كانت لديك كلمة طيبة تقولها ، قلها . وإلا فاصمت . وإن سمعت كلمة رديئة قالها أحد على أخيه ، فكن كأنك لم تسمع . وإن سمعت عن خصومة بين اثنين ، فحاول أن تصلح بينهما ، وترجع المحبة القديمة إلى قلبيهما . و بهذا تُدعى ابناً لله .

فإن كان مَنْ يوصل كلمة رديئة ، يضيع السلام بين الناس ، فماذا نقول إذن عمن يزيد عليها ، أو يزوّدها بمفاهيم مثيرة ، أو يخترع كلاماً من عندياته ليبلغه و يشعل به النار؟!!

لا يمكن أن شخصاً كهذا يُدعى ابناً لله ... لأنه ليس مثله صانع سلام ... وماذا نقول أيضاً عمَنْ يذكّر غيره بخصومة قديمة قد نساها ، أو بكلمات قيلت عليه منذ زمن وقد زالت تماماً من ذاكرته ...؟! والعجيب أنه يظن ذلك إخلاصاً ! بينما هو بكل هذا يوغر قلبه على أخيه ، و يعكر الماء الذى قد صفا وراق !

ولا تظن أنك تكسب صداقة إنسان بأن تعادى أعداءه بل الأفضل أن تصالحه مع أعدائه إن كنت تستطيع ...

كم من خصومات قد قامت بسبب الملق الرخيص ... وكم من أشخاص اضطروا أصدقاءهم أن يأخذوا موقفاً مضاداً عنيفاً من آخرين ـ من أجلهم هم ـ بينما أولئك لم يفعلوا ضدهم شيئاً . ولكنها خصومات سببها يشبه العصبية القبلية . وليس فيها على الاطلاق صنع سلام ، بل توسيع لرقعة الخصومة بين الناس . ليت الجميع فى كل ذلك يتذكرون قول الكتاب : «طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون» .

السلام الداخلى :

إنك بهذا السلام ، تصبح حقاً إبناً لله . لأن أبناء الله لا تقوم أجسادهم ضد أرواحهم ، بل يتفق الاثنان معاً فى محبة الله . وأبناء الله لا يكونون منقسمين من الداخل ، بل يسودهم سلام القلب ، حتى يفيضوا منه على الآخرين .

إن الشخص الذى يعيش فى سلام مع الله والناس ، لابد أنه يتمتع بسلام داخلى ، سلام القلب والفكر.

إنه يعيش فى راحة الضمير ، وكذلك فى حياة الإيمان التى يطمئن فيها قلبه ، و يهدأ من الداخل ، فلا يضطرب ولا يخاف ولا يقلق ، ولا تملكه الكآبة ولا الحيرة ولا الشكوك ... بل يحيا فى سلام داخلى ، مؤمناً بعناية الله وحفظه ، مهما كانت قوى الشر المحيطة ، فالله أقوى من الكل ، يقول : « لا تخف لأنى معك . ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ٩ ، ١٠) .

حقاً ، إذا فقد إنسان سلامه واضطرب ، يكون إيمانه قد ضعف ...

لقد إحتفظ داود النبي بسلامه ، وهو فى وادى ظل الموت (مز ٢٣) ، كما إحتفظ الثلاثة فتية بسلامهم ، وهم فى آتون النار .

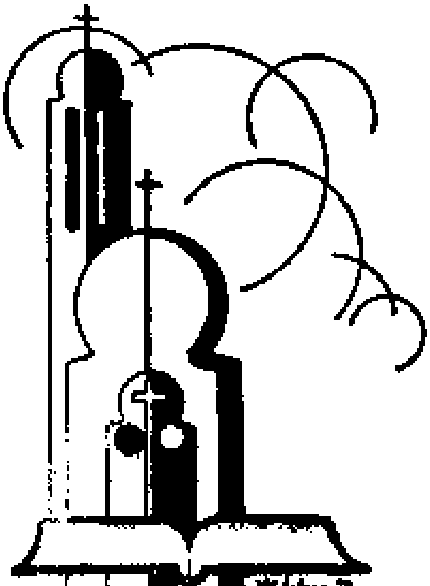

طوبى للمطرودين

لأجل البر

إن السيد المسيح لم يضع أمام الناس طريقاً سهلاً مفروشاً بالورود ...

بل حدثهم عن الطريق الكرب والباب الضيق ، قائلاً لهم : « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونه » (مت ٧ : ١٤) . وأراهم أنه لابد لهم من أن يتعبوا لأجل اسمه ، ولأجل البر ، ولهذا قال لهم :

« طوبى للمطرودين لأجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ... » (مت ٥ : ١٠ - ١٢) . انظر أيضاً (لو ٦ : ٢٢ ، ٢٣) .

لابد أن تكون هذ الحقيقة واضحة أمام كل مسيحى :

إنه إن سار فى طريق البر ، لابد سيتعب . وكما قال السيد المسيح : « مَنْ أراد أن يتبعنى ، فليحمل صليبه ، وينكر ذاته » (مت ١٦ : ٢٤) . وحسناً قال الكتاب أيضاً إنه : « بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٥ : ٢٢) . وما أجمل عبارة تقال للراهب يوم سيامته من سفر يشوع بن سيراخ ، وهى :

« يا ابنى إن تقدمت لخدمة ربك ، فهيىء نفسك لجميع التجارب » .

فلابد أن الذى يسير فى طريق الله ، يتعرض لمتاعب كثيرة ، لاختبار مدى صحة إختياره للطريق الروحى ، ومدى ثباته فيه . وأيضاً هناك سبب آخر لمتاعبه وهو :

إن الشياطين تحسد أولاد الله على برهم ، فتتعبهم .

فترسل لهم مَنْ يضايقهم ، أو ترسل لهم معوقات كثيرة ، لكى يتركوا طريق الله ، أو لكى يشعروا بصعوبته فيعجزوا عن الاستمرار فيه ... أو ترسل لهم مَنْ يعيّرهم ومَنْ يحكى عنهم بالشرّ ، ويقول فيهم كل كلمة شريرة مدعياً عليهم بما ليس فيهم ، أو ترسل لهم مَنْ يهينهم ويطردهم .

السيد المسيح قاسى الطرد مراراً وتكراراً ...

بعدما شفى مريض بيت حسدا ، الذى استمر مرضه ثماني وثلاثين سنة ، قيل : « لهذا كان اليهود يطردون يسوع ، و يطلبون أن يقتلوه ، لأنه عمل هذا فى سبت » (يو ٥ : ١٦) . وفى إحدى المرات رفضوا أن يقبلوه فى قرية للسامريين ، لمجرد أن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم (لو ٩ : ٥٢ ، ٥٣) . وحتى فى طفولته وهو فى مصر ، كانوا يطردونه من مدينة إلى أخرى ، لأن الأصنام كانت تسقط من هيبته « وترتجف أوثان مصر من وجهه » (إش ١٩ : ١) .

وهكذا حدث لتلاميذ المسيح ، ولكثير من الأنبياء ..

ولهذا قال السيد المسيح لتلاميذه : « ومتى طردوكم من هذه المدينة ، فاهربوا إلى الأخرى » (مت ١٠ : ٢٣) . وقال أيضاً : « فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » (مت ٥ : ١٢) وقال الرب عن أنبيائه فى العهد القديم : « إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلاً ، فيقتلون منهم و يطردون » (لو ١١ : ٤٩) . وقال : « ومنهم تجلدون فى مجامعكم . وتطردون من مدينة إلى مدينة » (مت ٢٣ : ٣٤) .

وقد أنبأ السيد المسيح تلاميذه بأنهم سُيطردون :

فقال لهم : « يلقون أيديهم عليكم ، و يطردونكم ، و يسلّمونكم إلى مجامع وسجون ، وتساقون أمام ملوك وولاة لأجل اسمى » (لو ٢١ : ١٢) .

المولود أعمى ، لما شهد شهادة طيبة عن المسيح ، بعد أن منحه البصر ، قيل عن اليهود أنهم شتموه « وقالوا له فى الخطايا وُلدت أنت بجملتك ، وأنت تعلمنا ! » « وأخرجوه خارجاً » (يو ٩ : ٣٠-٣٤) .

وداود النبى البار ، كان مطروداً من شاول الملك طول أيامه .

المهم أن يكون الإنسان مطروداً من أجل البر...

وليس كما يقول الكتاب : « الشرير يطرد بشره » (أم ١٤ : ٢٢) .

ولهذا قال القديس بطرس الرسول : « فلا يتألم أحد منكم ، كقاتل أو سارق أو فاعل شر ، أو متداخل فى أمور غيره . ولكن إن كان كمسيحى ، فلا يخجل بل يمجد الله من هذا القبيل » (١ بط ٤ : ١٥ ، ١٦) .

لكي تنطبق عليك هذه الطوبى لابد أن تتأكد من أن ما يحدث لك، هو من أجل البر..

فإن كنت تُطرد وتُهان وتُشتم ، وأنت مستحق لكل ذلك بسبب تصرفاتك الخاطئة ، فلا يمكن أن تنال الطوبى بسبب ذلك !

وهوذا معلمنا القديس بطرس الرسول يشرح هذا الأمر فيقول :

« لأن هذا فضل : إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله ، يحتمل أحزاناً ، متألماً بالظلم » (١بط ٢ : ١٩) . لاحظ هنا عبارة « بالظلم » ، أى أنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه الحزن والألم . لهذا يكمل الرسول قائلاً :

« **لأنه أى مجد هو ، إن كنتم تُلطمون مخطئين فتصبرون ؟!** بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير ، فتصبرون ، فهذا فضل عند الله ، لأنكم لهذا دعيتم » . ويشبه القديس بطرس هذا الأمر بما حدث للسيد المسيح له المجد ، فيتابع كلامه قائلاً : « فإن المسيح أيضاً تألم لأجلنا ، تاركاً لنا مثالاً لكى تتبعوا خطواته . الذى لم يفعل خطية ، ولا وُجِدَ فى فمه مكر ... » (١ بط ٢ : ٢٠ : ٢٣) . ويركز القديس بطرس على هذا التعليم بقوله :

« إن تألمتم من أجل البر ، فطوباكم .. » (١بط ٣ : ١٤) .

أى إن كان قد أصابك أذى من أجل فعل الخير ، أو من أجل الإيمان ، فطوباك . إن أجرك عظيم فى السماء . فهكذا اضطهدوا الأنبياء من قبل ...

بل إنك تكون بذلك قد إشتركت فى آلام المسيح ..

لأنه تألم من أجل البر . وطردوه وعيّروه ، وقالوا عنه كل كلمة شريرة وهم كاذبون ، وأتوا ضده بشهود زور ، « وأحصى مع الأثمة » (إش ٥٣ : ٢) .. فإن تألمت مظلوماً مثله ، فليس العبد أفضل من سيده (مت ١٠ : ٢٤) . « وإن كانوا قد فعلوا ذلك بالعود الرطب ، فماذا يكون باليابس ؟ » (لو٢٣ : ٣١) .

ولا شك أن الذين يطردونكم من أجل البر ، مدفوعون إلى ذلك بعمل الشيطان. وهكذا فإن عداءنا لا يوجه إليهم بل إلى الشيطان .

لذلك فإن القديس أثناسيوس الرسولى فى حربه ضد الأريوسية والأريوسيين ، قال : [إن عدونا الأول ليس هو أريوس ، وإنما هو الشيطان] .

وبهذا المنطق يمكننا أن نحب أعداءنا من البشر لأنهم ليسوا الأعداء الحقيقيين . فعدونا الحقيقى هو الشيطان . وما البشر الأعداء إلاّ ضحايا للشيطان ، الذى بث فيهم العداوة . وعلينا أن نشفق عليهم ونلتمس لهم النجاة منه ...

وهكذا نفهم معنى وصية الرب القائلة : « صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » (مت ٥ : ٤٤) .

صلوا لأجلهم لكى يعتقهم الرب من سيطرة الشياطين عليهم ، وهكذا ينجيهم من شرهم ، ويقودهم إلى التوبة . وصلوا لأجلهم ، لأنهم إن تخلصوا من شرهم ، لا يعودون إلى أذيتكم .. أما أنتم المطرودين لأجل البر. فلكم أجركم فى السماء ، لاحتمالكم ولصلاتكم عنهم ...

وحتى هنا على الأرض ، لكم معونة من الرب :

إن المولود أعمى ، لما طرده اليهود ، وأخرجوه خارجاً . وفيما هو خارج المجمع « وجده يسوع » (يو٩ : ٣٥) . التقى به الرب ، لأنه كان فى حاجة إلى هذا اللقاء ، كانت نفسيته تحتاج إلى مَنْ يسندها . فوجده الرب ، وقاده إلى الإيمان ، وشجعه ...

فلا تظنوا أن الحياة مع الله ، كلها طرد ، بلا عزاء ، أو بلا معونة إلهية ..!

الحياة الروحية ليست كلها ألماً ، ليست كلها إهانات وتعييراً وطرداً . لأنه يقول : « نقشتكم على كفى » (إش ٤٩ : ١٦) « حتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة » (مت ١٠ : ٣٠) . « لا يترك عصا الخطاة تستقر على نصيب الصديقين ، لئلا يمد الصديقون أيديهم إلى الإثم » (مز ١٢٤) . من الجائز أن تلمسهم ، ولكن لا تستقر عليهم ... وهكذا نلخص حياة البر فى أنها قد تكون :

ألماً من الناس ، وتعزية من الله ...

وهذا الأمر يشرحه بولس الرسول : « متحيرين لكن غير يائسين ، مضطهدين لكن غير متروكين ، مطروحين لكن غير هالكين ... لذلك لا نفشل ، بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى ، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً » (٢ كو٤ : ٨ ، ٩ ، ١٦) . إن الاضطهاد الذى يأتى من الخارج ، تصحبه تعزية إلهية من الداخل ، مع معونة فى الخارج ...

لذلك قال الرب : « طوبى لكم إذا طردوكم وعيّروكم . وقالوا عنكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ...

إن السيد المسيح لم يقل هذا الكلام لنا فحسب ، وإنما سار فى هذا الطريق أيضاً .

ولذلك يقول عنه الرسول إنه : « فيما هو قد تألم مجرباً ، يقدر أن يعين المجربين » (عب ٢ : ١٨) . وكما قيل : « ليس نبى بلا كرامة إلاّ فى وطنه » (مت ١٣ : ٥٧) لقد أستهانوا به قائلين : « من أين لهذا هذه ؟! وما هذه الحكمة التى أعطيت له ، حتى تجرى على يديه قوات مثل هذه ؟! أليس هذا هو النجار ابن مريم ؟.. فكانوا يعثرون به » (مر٦ : ٢ ، ٣) . وكانو يشتمونه . أما هو فلم يكن يشتم عوضاً (١ بط ٢ : ٢٣) « ظلم ، أما هو فتذلل ولم يفتح فاه » (إش ٥٣ : ٧) .

كم من الشتائم والإهانات ، تحملها السيد المسيح صامتاً !

قالوا له : « إنك سامرى وبك شيطان » (يو ٨ : ٤٨) . وقالوا عنه إنه : « ببعلزبول يخرج الشياطين » (لو١١ : ١٥) . وأنه إنسان « أكول وشريب خمر ، محب للعشارين والخطاة » (مت ١١ : ١٩) . وقالوا إنه كاسر للسبت ، وناقض للشريعة ، وانه ضد قيصر ، وانه ضال ومضل . وفى محاكمته قال عنه رئيس الكهنة : « قد جدّف . ما حاجتنا بعد إلى شهود ؟! » (مت ٢٦ : ٦٥) .

كذلك ما أسهل أن نتتبع الشتائم والإهانات التى تعرض لها الأنبياء والقديسون ...

موضوع لطيف يمكن لأحدكم أن يبحثه فى الكتاب المقدس وفى سير القديسين ... ولعل من أجله قال السيد المسيح : « فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » (مت ٥ : ١٢) .

القديس بولس الرسول : لما وقف يكرز فى أثينا ، قيل عنه : « ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول ؟! » (أع ١٧ : ١٨) . ولما تكلم عن القيامة « كان البعض يستهزئون به . والبعض يقولون سنسمع منك عن هذا أيضاً !! » (أع ٢٦ : ٢٤) .

لم تكن حياة الرسل كلها مجداً ، بل كان فيها أيضاً هوان ..

ولذلك قال القديس بولس عن خدمته وعن خدمة العاملين معه : « بمجد وهوان ، بصيت ردىء وصيت حسن ، كمضلين ونحن صادقون ... كحزانى ونحن دائماً فرحون » (٢ كو ٦ : ٨ ، ١٠) . إنه شيء مؤثر حقاً ، إن آباءنا الرسل كانوا يقاسون أحياناً الهوان ، والصيت الردىء ، ويوصفون أحياناً بالضلال ، ويقاسون الاضطهاد ولكنهم للتعزية ، كانوا « مضطهدين ، لكن غير متروكين » (٢ كو ٤ : ٩) .

إنك إذن فى الإضطهاد ، تشارك الرسل فى آلامهم ..

إن لم تشاركهم فى عمق القداسة التى عاشوها ، فعلى الأقل شاركهم فى بعض آلامهم ، بل إن القديس بطرس الرسول يقول لنا معزياً : « أيها الأحباء ، لا تستغربوا البلوى المحرقة التى هى حادثة بينكم ، كأنه أصابكم أمر غريب . بل كما إشتركتم فى آلام المسيح ، إفرحوا لكى تفرحوا فى إستعلان مجده أيضاً » (١ بط ٤ : ١٢ ، ١٣) .

إنها إذن شركة فى آلام المسيح ...

عنها قال القديس بولس الرسول : « لأعرفه وقوة قيامته ، وشركة آلامه ، متشبهاً بموته » (فى ٣ : ١٠) . إنها شركة فى حياة الصليب ... الصليب الذى ينبغى أن نحمله مع الرب أو من أجل الرب ، ونقول فيه مع الرسول : « مع المسيح صُلبت » (غل ١ : ٢٠) . ولكن لماذا هذا الصليب ؟ ينبغى أن نعرف حقيقة قائمة وهى :

إن الشر موجود فى العالم ، يعمل ، وبقوة ...

الزوان مايزال موجوداً فى حقل الرب إلى جوار الحنطة . وليس الزوان موجوداً فقط إنما هو ينمو . وسيظل ينمو إلى يوم الحصاد (مت ١٣ : ٣٠) .

إن النور موجود فى العالم ، والظلمة أيضاً موجودة . وعندما خلق الله النور ، لم يقل لا تكن ظلمة ، بل قال ليكن نور . و بقيت الظلمة ، بل صار لها أيضاً سلطان ، حتى قال السيد المسيح لليهود : « هذه ساعتكم وسلطان الظلمة » (لو ٢٢ : ٥٣) .

قوى الشر موجودة إذن ، تحارب الخير والبر . وأحياناً تكون أقوى ، لأن وسائلها بلا ضوابط .

الإنسان البار مقيد بقيود كثيرة كالصدق والخير . أما الشرير فيستطيع أن يكذب ، وأن يخدع ويمكر ، وأن يدبر الحيل ، و يدس الدسائس والمكائد و يستطيع أن يؤذى وأن ينتقم ، وأن يهدد وأن يفشى السرّ... إلخ . أما الإنسان البار فلا يقدر أن يستخدم شيئاً من هذا كله . ولذلك تبدو الكفتان غير متساو يتين . وقد ينتصر الشر فى بادىء الأمر . و يتحمل الإنسان البار من أجل بره كل مكائد الأشرار ... و يظل هكذا إلى أن يفتقده الله بنعمته و ينجيه ...

أمثلة لمشاكل الأشرار :

١ ـ خذوا مثلاً : أحد الأطباء يشتغل فى مستشفى عام أو وحدة علاجية . وهو إنسان بار لا يقبل على نفسه أن يستغل وظيفته للكسب بطريقة ملتو ية :

هذا الطبيب البار إستلم عمله بعد طبيب منحرف ، كان يحوّل كل المرضى إلى عيادته الخاصة ، وبخاصة العمليات ، كما كان يبيع لهم الأدو ية المجانية . أما هذا البار فرفض كل ذلك ...

أتاه مرة أحد الفلاحين يطلب أجراء عملية له ، وقدم مبلغاً من المال ، فرفض أن يأخذ منه . وظن الفلاح أن الطبيب يرى المبلغ قليلاً ، فأزاد وأزاد . ولكن الطبيب ظل به يقنعه أنها مستشفى مجانية ولم يأخذ منه شيئاً . ومضى الرجل لحال سبيله ...

وهنا قام الممرض ضد الطبيب . وقال له : ما هذا الذى تفعله ؟! هل تريد أن تقطع رزقنا ؟! إن الفلاح الذى تعمل له العملية ، تعود أن يعطينا كما يعطيك . فاقناعك له بأنها مستشفى مجانية ، معناه أننا سوف لا نأخذ أيضاً ، وبهذا تمنع عنا (الخير) الذى كان يأتينا ...!

وتوالت الشكاوى ضد الطبيب ، بأنه شيوعى ، وأنه ضد الدولة ، وأنه... وأنه ... ودفع ثمن بره وأمانته . وحاول المنتفعون بشرهم إقصاءه عن المكان ، فيكون من ضمن المضطهدين لأجل البر ...!

٢ـ مثال آخر معروف لكم جميعاً ، وهو يوسف الصديق :

لقد رفض أن يزنى مع إمرأة سيده . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد أدعت عليه زوراً أنه حاول أن يخطىء إليها . ونجحت فى الإساءة إلى سمعته ، فطرد من البيت ومن وظيفته ، والقي فى السجن (تك ٣٩) ، ونال أيضاً تلك البركة « طوبى للمطرودين لأجل البر » ..

حقاً إنه وقع تحت الاضطهاد من أجل بره . ونجح الشر فى أول معركة . ولكن الله لم يتركه . وانتهى أمره إلى أنه صار الوزير الأول فى المملكة ، بل صار « أباً لفرعون ، وسيداً لكل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر » (تك ٤٥ : ٨) .

وكأن ملاكاً يهمس فى أذن يوسف بقول الرب : « طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم ، وقالوا عنكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . إفرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات » (مت ٥ : ١١ ، ١٢) .

على أن يوسف لم ينل أجره فى السموات فقط ، وإنما على الأرض أيضاً ، وصار من قديسى التاريخ .

٣ ـ خذوا مثالاً آخر وهو أحد المحاسبين فى شركة من الشركات ... الباب الواسع مفتوح أمامه . يكفى عملية تزوير فى الحسابات ، يطبخها طبخاً ، فينال على ذلك آلاف الجنيهات ، ويكسب صاحب الشركة مئات الآلاف ..! فإن رفض ضميره

ذلك، يرفضه صاحب العمل، و يرفته، و يكون من المطرودين لأجل البر. وفى كل ذلك يقول سفر ملاخى النبى :

« والرب أصغى وسمع ، وكتب أمامه سفر تذكرة » (ملا ٣ : ١٦) .

الله لا ينسى التعب الذى يتعبه الأبرار من أجل برهم. وهو يرى كل ذلك وسيجازى كل واحد حسب عمله. إنه ــ تبارك اسمه ــ يعرف أى ثمن يدفعه البار ليحتفظ ببره ...!

البار إذن معرض لأن يقاسى كثيراً من الأشرار ..

هوذا المرتل يقول فى المزمور : « مراراً كثيرة حاربونى منذ صباى ... مراراً كثيرة قاتلونى منذ شبابى » و يقول أيضاً : « على ظهرى جلدنى الخطاة ، وأطالوا إثمهم » (مز١٢٨). نلاحظ هنا أنهم لم يجلدوه فقط ، وإنما أطالوا إثمهم . أى استمروا فى هذا الإيذاء فترة طويلة ... ومع أن الله نجاه أخيراً ، إذ يقول : « الرب صدّيق هو، يقطع أعناق الخطاة » ، إلاّ أن هذا لا يمنع التعرض لإيذاء الخطاة ، منذ الصبى ، ومنذ الشباب ، على مدى زمنى طويل .

الأبرار لا يستطيعون أن يردوا بالمثل على الأشرار ..

لا يستطيعون أن يردوا على الشتيمة بشتيمة ، ولا على المخداع بخداع ، ولا على الضرب بالضرب ، لأن ضمائرهم لا تسمح بذلك . كما أنهم لا يمكنهم أن ينتقموا لأنفسهم ، حسب الوصية (رو١٢ : ١٩). بل يقدمون الخد الآخر ، ويمشون الميل الثانى ، و يتركون الرداء أيضاً لمَنْ يغتصب الثوب (مت ٥ : ٣٩-٤١). ويحتملون كل ذلك فى صمت ، إلى أن يتدخل الله و ينصفهم ، الله الذى يحكم للمظلومين (مز١٤٦ : ٧) ، الذى قال عنه موسى النبى : « الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (خر١٤ : ١٤).

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن الأبرار هم بلا شك أفضل حالاً من مضطهديهم ..

إن الذين يضطهدون غيرهم ، هم مساكين ، لأنهم لا يضطهدون فى الواقع سوى أنفسهم . إنهم يفقدون نقاوة قلوبهم ، و يفقدون أيضاً أبديتهم ، و يفقدون الله نفسه الذى يقف ضدهم أو ضد ظلمهم لغيرهم . وقد يفقدون أيضاً سمعتهم ، وتؤخذ عنهم فكرة سيئة من أجل أفعالهم الخاطئة . وربما يقعون فى شر أعمالهم ولو بعد حين . والتاريخ يحكى لنا قصصاً عجيبة عن نهاية المضطهدين ...

أما الإنسان الواقع تحت إضطهاد أو ظلم ، فإن الله يكون معه على الأرض ، وله أيضاً ملكوت السموات .

يعيش فى نقاوة قلب ، لا يبكته ضميره على شىء . وما يحيط به من ظلم ، يقوى صلته بالله ، ويجعل صلواته وأصوامه أكثر عمقاً وروحانية . ويختبر حياة الإيمان ، و يد الله وكيف تتدخل فى حياته وتنقذه . وكل ما يصيبه من شر ، لابد سيأخذ فى السماء أجراً عن إحتماله له .

المهم أنه لا يفقد سلامه الداخلى ، بل يقول مع المرتل فى المزمور: « وإن قام علىَّ قتال ، ففى ذلك أنا مطمئن » (مز٢٧ : ٣) .

إن تعلق الإنسان بالسماء ، يجعله يحتمل فى رضى . وما أجمل قول القديس بولس الرسول :

« إن كان لنا فى هذه الحياة فقط رجاء فى المسيح ، فنحن أشقى جميع الناس » (١ كو١٥ : ١٩) .

لأننا نتعب هنا على الأرض ، بينما يتمتع الخاطئون . ولكننا نشقى على رجاء فى متع السماء . وندرك جيداً قول أبينا إبراهيم لغنى لعازر: « اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك ، وكذلك لعازر (إستوفى) البلايا . والآن هو يتعزى وأنت تتعذب » (لو١٦ : ١٥) .

فلنهتم إذن بالأجر السماوى ، لأنه أهم ولأنه الباقى والدائم .

أول إنسان طُرد بسبب الخطية ، هو أبونا آدم ، ومعه أمنا حواء . طُردا من الجنة ، ومن الإقتراب إلى شجرة الحياة ، باستحقاق ... (تك٣ : ٢٣ ، ٢٤) .

أول إنسان طُرد من أجل البر ، هو هابيل البار.

طرده أخوه قايين من الحياة الأرضية كلها ، إذ قام عليه وقتله ... وكان ذلك من أجل بره « لأنه بالإيمان قدم لله ذبيحة أفضل من قايين ... وشُهد له أنه بار، إذ شهد الله لقرابينه » (عب ١١ : ٤).

وكثر عدد القديسين الذين طردوا من أجل البر. ووردت سيرهم فى الكتاب المقدس وفى سير الآباء . ونذكر منهم مجرد أمثلة لنتعزى كلما أصابنا شيء بسيط من متاعبهم ...

أمثلة لقديسين اضطهدوا وطردوا:

داود النبى :

كان داود إنساناً باراً ، أمام الله والناس .

إختاره الله من دون إخوته السبعة ، وكلهم أكبر منه سناً . وصب صموئيل النبى على رأسه من قنينة الدهن المقدس ، ومسحه أمام إخوته (١ صم ١٦ : ١٣) .

وصار داود مسيحاً للرب . وحل عليه روح الرب .

وكان « روح الرب قد فارق شاول الملك ، وبغته روح ردىء من قبل الرب » (١ صم ١٦ : ١٤) . واحتاج شاول إلى داود ليطرد عنه الروح الشرير...

وكان التقرير الذى قدم لشاول عن داود هو أنه « يحسن الضرب بالعود ، وهو جبار بأس ، ورجل حرب ، وفصيح ورجل جميل ، والرب معه » (١ صم ١٦ : ١٨) .

وأفلح داود فى طرد الروح الشرير عن شاول (١ صم ١٦ : ٢٣) .

وكان هذا دليلاً على بر داود ، وعلى أن الرب معه . كما أن تمكن داود من قتل جليات الجبار يدل أيضاً على إيمانه وبره ، وعلى أن الرب كان معه . وكذلك تمكنه من قتل الأسد والدب (١صم ١٧ : ٢٧) يدل تماماً على أن الرب كان معه ، وقد أنقذه منهما .

ومع كل هذا قاسى داود إضطهاداً مرّاً من شاول من أجل أن الرب كان معه !

يقول الكتاب : « فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود ... وعاد شاول يخاف داود بعد . وصار شاول عدواً لداود كل الأيام » (١صم ١٨ : ٢٨ ، ٢٩) .

حاول مراراً أن يقتله . « كلّم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود » (١صم ١٩ : ١) « والتمس شاول أن يطعن داود بالرمح .. فهرب داود ونجا فى تلك الليلة » (١صم ١٩ : ١٠) .

وبقي داود هارباً من شاول ، من برية إلى برية .

هرب داود ، وجاء إلى صموئيل النبى فى الرامة ... ثم ذهب معه إلى نايوت ، فطارده شاول (١صم ١٩ : ١٨) . فهرب من نايوت وجاء إلى صديقه يوناثان بن شاول وقال له : « ماذا فعلت ؟ وما هو إثمى وما هى خطيئتى أمام أبيك حتى يطلب نفسى !؟ » (١صم ٢٠ : ١) .

وهرب داود إلى نوب ، إلى أخيمالك الكاهن (١صم ٢١ : ١) . وطارده شاول فهرب إلى أخيش ملك جت (١صم ٢١ : ١٠) ... ثم هرب إلى مغارة عدلام (١صم ١٠ : ١) ، ثم إلى مصفاة يوآب ، ثم إلى وعر حارث (١صم ٢٢ : ٣ ، ٥) ثم إلى قعيلة (١صم ٢٣ : ١) ولكن فى كل ذلك نقرأ عبارة معزية عن داود — المطرود لأجل بره — وهى :

وكان شاول يطلبه طول الأيام . ولكن الله لم يدفعه إلى يده (١ صم ٢٣ : ١٤) .

هرب داود إلى برية زيف ... ثم إلى عين جدى (١ صم ٢٣ : ١٥ ، ٢٩) . فطارده شاول إلى هناك .. وهرب داود إلى برية فاران (١ صم ٢٥ : ١) .

وبعد سلسلة من الطرد ، نجا داود ومات شاول ، ولكن ليس بيد داود .

وداود البار هذا ، قاسى مراراً الطرد من آخرين ، غير شاول الملك ... ولكن طرده كان بركة له ولنا :

لولا هذا الطرد ، ما عاش حياة الإتضاع وانسحاق النفس ، ولولاه ما كانت بعض مزاميره الحلوة المعزية ، التى راق للبعض أن يسميها : « أناشيد الطريد » . ولولا هذا الطرد ، ما كانت له حياة الإيمان العجيبة ، التى إختبر فيها يد الله تمتد إلى حياته وتعينه ، وقال فيها من عمق قلبه : « نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين . الفخ إنكسر ، ونحن نجونا . مبارك الرب الذى لم يسلمنا فريسة لأسنانهم » (مز ١٢٤) .

بولس الرسول :

القديس بولس الرسول ، البار العظيم ، الذى تعب أكثر من جميع الرسل فى الكرازة والتعليم (١ كو ١٥ : ١٠) كان هو أيضاً مطروداً من البر ...

قاسى هذه المرارة فى فيلبى ، بسبب معجزة أجرها الله على يديه ..!

أخرج شيطاناً باسم الرب يسوع من جارية كانت عليها روح عرافة ، وكانت تكسب مواليها مكسباً كثيراً بعرافتها ... فلما رأوا أنهم قد خسروا مكسبهم بسبب خروج الروح النجس ، هاجوا على بولس وزميله سيلا ، وجروهما إلى الحكام ، ثم ألقيا فى السجن ، إلى أن نجاهما الله منهم .. ثم جاء الولاه وأخرجوهما ، وسألوهما أن يخرجا من المدينة (أع ١٦ : ١٦-٣٩) .

وفى أفسس لاقى بولس نفس الاضطهاد من أجل البر .

كانت كرازته بالإيمان المسيحى كارثة على صانعى الأصنام . وفى أفسس كان يوجد هيكل لأرطاميس ، وتمثالها الذى يقولون إنه هبط من زفس ...! واستطاع القديس بولس أن يستميل كثيرين إلى الإيمان بقوله إن التماثيل التى تُصنع بالأيادى ، ليست هى آلهة . فحدث هياج كبير . وقامت مظاهرة تهتف بحياة أرطاميس الأفسسيين ... وكانت النتيجة أن بولس خرج من أفسس واتجه إلى مكدونية (أع ١٩ : ٢٣ــ ٢٠ : ١) .

ولم يكن بولس طريداً وحده ، بل جميع المسيحيين .

نسمع عن الكنيسة الأولى ، حتى قبل بشارة القديس بولس أنه : « حدث إضطهاد عظيم على الكنيسة التى فى أورشليم . فتشتت الجميع فى كور اليهودية والسامرة » (أع ٨ : ١) .

واستخدم الله هذا التشتت للخير...

وهنا نقرأ العبارة الخالدة التى يقول فيها الوحى الإلهى إن : « الذين تشتتوا ، جالوا مبشرين بالكلمة » (أع ٨ : ٤) . وهكذا حوّل الله الشر إلى خير ... وطوباهم هؤلاء الذين كانوا مطرودين من أجل البر .

إرمياء النبى :

إرمياء العظيم الذى قال له الرب : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك . وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (إر ١ : ٥) . هذا أيضاً كان مطروداً لأجل البر .

عصره الفاسد لم يقبل رسالته ، فاضطهده إضطهاداً مريراً :

حتى أنه قال للرب معاتباً : « أبرّ أنت يارب من أن أخاصمك . ولكنى أكلمك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار؟! اطمأن كل الغادرين غدراً !! »

(إر١٢ : ١). وتعرض إرمياء من أجل نبوءاته لخصام الناس له ، ولعنهم إياه ، ومقاومتهم لعمله النبوى ... حتى أنه قال : « و يل لى يا أمي ، لأنكِ ولدتنى إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ... وكل واحد يلعننى » (إر١٤ : ١٠).

وشكا إرمياء لله من الظلم الواقع عليه.

فقال : « لأنهم حفروا حفرة ليمسكونى . وطمروا فخاخاً لرجلىّ . وأنت يارب عرفت كل مشورتهم علىّ للموت » (إر١٨ : ٢٢ ، ٢٣). وقال : « صرت للضحك كل النهار. كل واحد استهزأ بى ... لأن كلمة الرب صارت لى للعار وللسخرة كل النهار» (إر٢٠ : ٧ ، ٨).

وأخيراً ألقى إرمياء فى الجب فغاص فى الوحل.

ضربوه وجعلوه فى بيت السجن (إر٣٧ : ١٥ ، ٢١). وكان ذلك بأمر من الملك صدقيا . ولأنه كان أميناً فى نبوءته ، ولم يتملق الملك ولا الرؤساء ولا الشعب ، أخذوه والقوه فى جب ابن الملك الذى فى دار السجن « ودلوا إرمياء بحبال . ولم يكن فى الجب ماء بل وحل . فغاص ارميا فى الوحل » (إر٣٨ : ٦). وظل هكذا إلى أن أخرجوه وأقام فى دار السجن...

ميخا النبى :

وقع ميخا النبى فى نفس مشكلة ارميا النبى ، ولنفس السبب . وذلك لأنه رفض أن يتملق ملك إسرائيل وقال : « حىّ هو الرب ، إن ما يقوله لى الرب ، به أتكلم » (١ مل ٢٢ : ١٤). وقال نبوءته بصدق ، فلم تعجب الملك ، فقال الملك : « ضعوا هذا فى السجن ، واطعموه خبز الضيق وماء الضيق ... » (١ مل ٢٢ : ٢٧).

القديس اثناسيوس الرسولى

كم من طرد واضطهاد ونفى ذاقه القديس البابا أثناسيوس من أجل بره ، لدفاعه عن الإيمان.

أربع مرات نفى عن كرسيه . وعاش سنوات طويلة طريداً ، يجول من بلد إلى

بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ما بين بلاد الشرق والغرب ... ثار عليه الأريوسيون ، وعقدوا ضده مجامع ، واتهموه إتهامات باطلة ، وهيجوا عليه الحكام . وقيلت له تلك العبارة المشهورة : [العالم كله ضدك يا أثناسيوس] ...

* * *

ونفس الكلام يمكن أن نقوله عن بطاركة كثيرين :

مثل القديس ديسقوروس الذى نفى عن كرسيه للدفاع عن الإيمان ، ومثل خلفاء هذا القديس طوال ١٩٠ سنة منذ العصر الخلقيدونى إلى دخول العرب مصر (٦٤١ — ٦٤٤ م) . ولما جاء عمرو بن العاص كان البابا بنيامين منفياً عن كرسيه حوالى ١٣ عاماً ، يسير من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، يثبت الناس فى الإيمان . وفى عهد جستنيان فى بداية القرن السادس الميلادى ، كان القديس ساويرس البطريرك الانطاكى طريداً من أجل البر ، مبعداً عن كرسيه حوالى ٢٨ عاماً قضاها فى مصر .

ويعوزنا الأمثلة إن ذكرنا تاريخ البابوات والأساقفة على ممر العصور ..

إفرحوا وتهللوا

يختم الرب هذه الطوبى ، طوبى الذين يُضطهدون من أجل البر ، بقوله : « إفرحوا وتهللوا ، لأن أجركم عظيم فى السموات . فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » (مت ٥ : ١٢) . وقد شرحنا أمثلة من طرد الأنبياء ...

لم يقل الرب فقط عن الاضطهاد : « إحتملوا »، إنما قال بالأكثر: « إفرحوا وتهللوا » .

إفرحوا من أجل الأكاليل المعدّة لكم ... من أجل ما ينتظركم فى الأبدية من نعيم ... إفرحوا لأنكم سرتم فى الطريق السليم، الطريق الكرب المؤدى إلى الحياة (مت ٧ : ١٤)، وحملتم الصليب مثل سيدكم ... نعم إفرحوا فهكذا فعل الآباء الرسل ، لما جلدوهم ثم أطلقوهم . يقول الكتاب :

« وأما هم فذهبوا فرحين ... لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه » (أع ٥ : ٤١) .

أنتم ملح الأرض
أنتم نور العالم

تسلسل عجيب

فى الحقيقة أن التطويبات تبدو وكأن الرب قد قدمها لنا فى تسلسل عجيب . فأول شيء نراه قد وضع أساساً للحياة الروحية كلها هو التواضع والوداعة . فقال طوبى للمساكين بالروح . طوبى للودعاء ..

لأن الذى لا يبنى حياته على أساس التواضع ، تكون كل الفضائل التى يقتنيها طعاماً للمجد الباطل والافتخار.

أما المسكين بالروح ، فمهما إرتفع فى سلم الروحيات ، لا يرتفع قلبه ، لأنه منسحق من الداخل . وهكذا يكون إتضاعه سياجاً حصيناً لفضائله ... فيحتفظ بها فى أمن .

فإن إحتفظ الإنسان بفضائله ، ووصل إلى نقاوة القلب وإلى سلام بينه وبين الله ، حينئذ تحسده الشياطين ، وتثير عليه الاضطهاد من أجل بره .

لذلك فإن الرب بعد أن قال : « طوبى لأنقياء القلب » ... و« طوبى لصانعى السلام » ، قال بعدها : « طوبى للمضطهدين لأجل البر » ... فإن إحتمل الإنسان الروحى كل ما يناله من إضطهاد ، حينئذ يفرح لأنه حمل صليب المسيح ، ولأنه سينال أجراً عظيماً فى ملكوته ...

غير أن الحياة الروحية ليست فقط جهاداً من أجل نقاوة قلب صاحبها ، وإنما لها أيضاً عمل من أجل الآخرين .

لذلك بعد أن شرح الرب كل التطويبات ، قال بعدها : « أنتم ملح الأرض ... أنتم نور العالم ... فليضىء نوركم هكذا قدام الناس ، لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » (مت ٥ : ١٣-١٦) .

وهنا يرينا الرب أنه لا يصح أن نكتفى بالفضائل الشخصية ، وإنما علينا رسالة تجاه غيرنا .

عبارات المسكنة بالروح ، والوداعة ، ونقاوة القلب ... كلها فضائل شخصية . فما هى رسالتنا إذن ؟ الرسالة هى :

أنتم ملح الأرض

لا يصلح طعام بغير ملح . الملح يصلح الطعم .

حتى القرابين : يقول الرب فى سفر اللاويين : « وكل قربان من تقدماتك ، بالملح تملحه . ولا تُخلِ تقدمتك من ملح عهد إلهك . على جميع قرابينك تقرّب ملحاً » (لا ٢ : ٣) .

وهنا يقول : « أنتم ملح الأرض » ... وضعتكم فى الأرض كلها ، لتصلحوها ، لكى يكون لها طعم .

لا يستطيع أحد أن يتخلى عن مسئوليته تجاه الآخرين ، ويقول كما قال قايين : « أحارس أنا لأخى ؟!» (تك ٤ : ٩) .

نعم ، أنت حارس لأخيك ، إن كنت تحبه بالحقيقة . حبك له يجعلك تحرسه ... تحرسه من كل خطر مادى ، ومن كل خطأ روحى ، بوداعة وبأسلوب روحى .

وهكذا قال الرسول : « أيها الإخوة ، إن إنسبق إنسان فأُخذ فى زلة ، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ... احملوا بعضكم أثقال بعض . وهكذا تمموا ناموس المسيح » (غل ٦ : ١ ، ٢) .

إنت مسئول إذن عن غيرك ، فى حدود إمكانياتك .

أنت مسئول أن تعمل عملاً من أجل خير الناس ، فى نطاق الدائرة التى تحيا فيها . وإن كنت قد عشت مع المسيح وذقت حلاوته ، فالمفروض أن تقول للناس كما قال داود النبى : « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » (مز ٣٤ : ٨) .

تقولها بفمك لمَنْ يسمعونك . أو يذوقون ذلك فى حياتك ...

وكما وصلت إلى الرب ، توصل الآخرين معك .

إن المرأة السامرية ، مع أنها كانت حديثة العهد بالتوبة ، إلاَّ أنها ما أن عرفت المسيح ، حتى ذهبت وبشرت وقالت للناس « فآمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة ... » (يو ٤ : ٣٩) . ولو سكتت هذه المرأة ، ما كان يلومها أحد ، ولكنها لم تستطع أن تصمت .

هكذا كل مَنْ عرف الرب ، لا يستطيع أن يصمت .

إن رؤساء الكهنة والشيوخ حاولوا بكل الطرق أن يسكتوا التلاميذ فلم يستطيعوا ، بل أجابهم أولئك القديسون قائلين : « نحن لا يمكننا أن لا نتكلم ... » (أع ٤ : ٢٠) .

فاسأل نفسك إذن : هل أنت ملح الأرض ونور العالم ؟ أى عمل قمت به من أجل غيرك ؟

الكنيسة لابد أن تؤدى رسالة للعالم ، كجماعة قديسين يسلكون حسب مبادىء المسيح السامية ، وعن طريقهم تصل هذه المبادىء إلى العالم .

فكيف يمكن ذلك ؟ للكنيسة كلها ، ولك كفرد ...

رسالة القدوة

مجرد حياتنا وسط الناس ، مفروض أن تكون قدوة لهم ، أن تكون مثالاً ونموذجاً موضوعاً أمامهم ، يرون فيه الطريق العملى لحياة الإيمان وحياة النقاوة . نعم ، المفروض فينا أن نقدم للناس صورة الله ، كما قدمها لنا المسيح .

كان الفداء هو الغرض الأساسى لتجسد المسيح . ولكن من الأسباب الجانبية أن البشرية لما فقدت الصورة الإلهية ، جاء المسيح ليقدم لها صورة الله حتى تعيش بحسبها ..

انظروا كيف أن السيد المسيح لما غسل أرجل التلاميذ ، قال لهم : « إن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم ، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض . لأنى أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم ، تصنعون أنتم أيضاً » (يو١٣ : ١٤، ١٥) .

ولهذا قال لنا القديس بطرس عن السيد المسيح إنه : « ترك لنا مثالاً لكى نتبع خطواته » (٢ بط ٢ : ٢١) . وبنفس المعنى قال القديس بولس الرسول :

« كونوا متمثلين بى ، كما أنا أيضاً بالمسيح » (١ كو ١١ : ١) .

وبهذا كان الآباء الرسل نوراً للعالم ، كقدوة .

وهكذا يطلب الرسول من أولاده ، فى أكثر من موضع ، أن يتمثلوا به (١ كو٤ : ١٦ ؛ ٢تس ٣ : ٩) ، وبالذين يسيرون بينهم كقدوة (فى ٣ : ١٧) .

لا يستطيع أحد أن يرى الطريق فى الظلام . ولكنه بالنور يرى الطريق . وهكذا من عمل القديسين ــ الذين هم نور العالم ــ أن يجعلوا العالم يرى الطريق إلى الله ، ويكونون له قدوة ، يتتبع خطواتها حتى يصل « لكى يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » .

والحياة كقدوة وصية إنجيلية ...

وفى هذا يقول القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس :

« لا يستهن أحد بحداثتك ، بل كن قدوة للمؤمنين : فى الكلام، فى التصرف ، فى المحبة ، فى الروح ، فى الإيمان ، فى الطهارة » (١تى ٤ : ١٢) .

ويقول لتلميذه تيطس : « مقدماً نفسك فى كل شيء قدوة للأعمال الحسنة » (تى ٢ : ٧) . ربما لا يكون التعليم من عمل أو قدرة كل أحد ، ويقتصر على المؤتمنين عليه ، الصالحين للتعليم ...

أما القدوة فهى لكل الناس ، وفى بإمكان الكل .
الذى لا يستطيع أن يعظ ، يمكنه أن يكون عظة .
العظة تقدم تعليماً نظرياً . والقدوة تقدم المثال العملى .

وعن كل هذا يقول لنا الرسول : « أنتم رسالتنا ... معروفة ومقروءة من جميع الناس . ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا ... » (٢ كو٣ : ٢ ، ٣) . بل يقول إن المسيح : « يُظهر بنا رائحة معرفته فى كل مكان ، لأننا رائحة المسيح الذكية » (٢ كو٢ : ١٤ ، ١٥) .

المفروض أن كل مَنْ يرانا ، ينتفع بمنظرنا ، حتى دون أن نتكلم . وينتفع أيضاً بأسلوبنا فى الكلام وفى التصرف ، دون أن نعظ ...

والمعروف أن الناس يستفيدون من حياة الآخرين ، أكثر مما يستفيدون من أقوالهم . ومن ناحية أخرى لا يمكنهم أن يستفيدوا من عظات أحد ، إن لم تكن تصرفاته روحية تسند عظاته وتتفق معها ...

والقدوة تنفع أيضاً بالنسبة إلى الذين لا يمكنك وعظهم .

فأنت قد تعظ أو تعلّم مَنْ هو أصغر منك سناً ، أو أقل منك مركزاً أو علماً . ولكنك قد تحتشم من أن تعظ مَنْ هو أكبر أو أعلى منك . فهذا تنفعه قدوتك ...

كذلك هناك أشخاص لا يحتملون الوعظ ولا يقبلونه !

تمنعهم كبرياؤهم أو يمنعهم اعتدادهم بأنفسهم من قبول كلمة توجيه أو نصح ، أو كلمة تعليم أو وعظ . ومن باب أولى لا يحتملون كلمة نقد . وإن قلت لأحد منهم كلمة منفعة ، قد ينظر إليك فى إستنكار ويقول لك : [أنت ها توعظنى ؟!] ... كل تفاصيل هذا النوع من الناس قد ينفعهم مثالك الطيب ، ويكلمهم فى صمت ...

وعن وجوب القدوة ، يقول لنا الرسول :

« معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس » (رو١٢ : ١٧) .

ويقول بأكثر توضيح « معتنين بأمور حسنة ، ليس قدام الرب فقط ، بل قدام الناس أيضاً » (٢ كو٨ : ٢١) . وبهذا يصير المؤمن فى حياته نوراً لغيره .

وصيرورة الإنسان نوراً ، لها ثلاث فوائد :

١ ـ منفعة الآخرين فى تقديم المثال الروحى العملى لهم .

٢ ـ من ناحية أخرى ، لا يكون الإنسان عثرة لأحد .

٣ ـ هذا السلوك الحسن يؤدى إلى تمجيد الآب السماوى ، حسب قول الرب ...

فأنت إن سلكت حسناً ، تحبب الناس فى الدين .
وإن لم تسلك حسناً ، قد يُجدف عليه بسببك .

بل إن القديس يعقوب الرسول يقول أكثر من هذا : « يجدفون على الاسم الحسن الذى دُعى به عليكم » (يع ٢ : ٧) .

على أن هناك ملاحظة هامة نضيفها بالنسبة إلى هؤلاء الذين يكونوا ملحاً ونوراً وهى :

قدوة حتى بعد الوفاة :

الإنسان الصالح يكون ملحاً للأرض فى حياته وبعد مماته أيضاً ، لأنه يقدم سيرة يمكن الاحتذاء بها بعد الوفاة ، كمثال . وفى هذا يقول القديس يعقوب الرسول :

« خذوا يا إخوتى مثالاً لاحتمال المشقات وطول الأناة : الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب ... قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب » (يع ٥ : ١٠، ١١) ..

وحينما ذكر معلمنا يعقوب هذا المثال ، كان أيوب البار قد رقد فى الرب منذ آلاف السنين . ومع ذلك بقى مثالاً لنا حتى الآن ، ملحاً للأرض ونوراً للعالم ، وقدوة ...

فالشخص الروحانى ــ كنور ــ تمتد حياته عبر الأجيال ، ولا تموت سيرته بموته . بل تبقى حياته نوراً للناس .

خذوا مثالاً آباءنا الرهبان ، وكيف كانوا نوراً للعالم وملحاً للأرض . يأتى الناس من أقاصى الأرض لكى يسمعوا كلمة منفعة من أفواههم . وبعد أن تنيح أولئك

الرهبان ، لاتزال سيرهم المقدسة حتى الآن نوراً يضيء العالم ، تمنحه الحكمة والافراز والفهم الروحى ...

أتُرى حياة القديس أنطونيوس إنتهت بوفاته ؟! كلا ، إنه لايزال حياً يعظ ويتكلم ويشرح الطريق بسيرته . كما قيل عن هابيل البار .

« ... وإن مات ، يتكلم بعد » (عب ١١ : ٤) .

وبنفس القياس : أوغسطينوس فى تأملاته كان نوراً ولايزال . وذهبى الفم فى عظاته كان نوراً ولايزال . وكذلك باقى القديسين فى تعليمهم وفى سيرتهم . ولذلك يقول الرسول : « اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله » . وكيف ؟

« انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) .

ومن جهة القدوة وتأثيرها سلبياً وإيجابياً ، نذكر قصة غاندى :

هذا الزعيم الهندى العظيم ، أثرت فيه تعاليم المسيحية . ويُروى عنه أنه حينما زار فرنسا ، وقف أمام أيقونة المسيح المصلوب وبكى . وكان يقول عبارته المشهورة : [إننى أحب المسيحية ولكن ...] . ولكن المسيحيين فى أيامه كانت صورتهم قاتمة جداً وبشعة : سواء فى ذلك مسيحيو جنوب أفريقيا فى إضطهادهم الشديد للعناصر غير البيضاء ، أو المسيحيون الذين يستعمرون الهند بقسوة لا مثيل لها . وهكذا أعطوا أسوأ صورة عن حكم المسيحيين .

ربما لو كان الحكام المسيحيون فى الهند وجنوب أفريقيا على مستوى روحى ، لكان لذلك أثره الدينى على غاندى ، وبالتالى على ٤٠٠ مليون هندى وقتذاك .

ولكن على العكس : كان غاندى البراهمى هو المثل الروحى الحقّ ، أعلى من المسيحيين فى أيامه . وكان إذا صام يهز البرلمان الإنجليزى . كما كان فى تحمله الألم والاضطهاد بدون مقاومة أو إنتقام ، ينال إعجاب العالم المسيحى ويستنزل السخط على الحكام القساة الظالمين ، الذين كانوا مسيحيين بالاسم ، وصورة سيئة للروح المسيحية ..!

من الأمثلة الطيبة فى القدوة : الأنبا أنطونيوس ..

قال عنه القديس أثناسيوس الرسولى : [مَنْ مِنَ الناس كان مضطرباً أو مرّ

النفس ، و يرى وجه الأنبا أنطونيوس ، إلاّ ويمتلىء قلبه سلاماً] .

إلى هذا الحد كان تأثير أولئك الذين إنطبق عليهم قول الرب : « أنتم نور العالم . أنتم ملح الأرض » .

ومن أمثلة القدوة التي تأثرت بها ، الأستاذ حبيب جرجس :

أستاذنا الأرشيدياكون حبيب جرجس ، لم يكن معلم جيله فحسب ، إنما كان قدوة أيضاً . فى كل مرة كنت أزوره فيها ، كنت ألتقط كلمة منفعة من فمه لأكتبها فى مفكرتى . وكنت حينما أراه فى وداعة وطيبة قلبه ، أقول فى نفسى : إن كان واحد من البشر فى مثل هذه الوداعة ، فكم وكم يكون إلهنا الوديع ... وهكذا أخرج منتفعاً ... أمجد الله فى هذا الإنسان ...

وهكذا ، إذا صعب علينا فهم معنى روحى ، يمكننا أن نراه عملياً فى إنسان .

إذا لم نفهم معنى الوداعة مثلاً ، يمكننا أن ندرك تفاصيل معناها من الودعاء . و بهذا يكون أولاد الله الروحيون وسائل إيضاح لكل الفضائل ، يتعلمها الناس من منظرهم ، حتى دون أن يتكلموا أو يعظوا .

لماذا الملح والنور؟

أنتم الملح الذى يصلح به العالم . يملّحه ويجعله مليحاً . وأنتم النور الذى يضىء له الطريق إلى الله ..

هنا يرفع الرب معنويات سامعيه : إنهم بركة للعالم ، وصلاحاً له . وماذا أيضاً ؟ إنهم مدينة كائنة على جبل ، ومصباح فوق المنارة يضىء لجميع الناس ... العظة على الجبل إذن تبدأ بكلام التطويب ، ثم بكلمات الثناء والتشجيع ، يشدد بها الرب الركب المخلعة ، و يقوّم الأيدى المسترخية (عب ١٢ : ١٢) . وكأنه يقول لهم بهذا :

أنتم لستم نكرات . العالم يشعر بوجودكم و يعترف به .

أى طعام يذوقه إنسان ، يستطيع أن يحس بمقدار الملح الذى فيه ، إن كان قليلاً أو كثيراً أو معتدلاً . وهكذا المسيحى الحقيقى إن وُجِد فى أى مجتمع ، لابد أن الكل

يشعرون به و بتأثيره ... وليس كما يظن البعض أن المسيحى النقى القلب لابد أن يعيش فى المجتمع منسياً أو مجهولاً لا يشعر به أحد !

إن إنكار الذات فى حياة التواضع شىء . وتأثير الذات على الآخرين شىء آخر ..

بولس الرسول كان كثيرون يحبونه و يتتلمذون عليه ، والبعض كان يريد قتله . ولكنه عند هؤلاء وأولئك كان له وجود يعترف به الكل . و يوحنا المعمدان حينما خرج من البرية وظهر للناس ، إستطاع أن يفرض وجوده ، وأن يكون له تأثيره الهائل ، على الرغم من إنكاره لذاته .

فمن الممكن أن ينكر الإنسان ذاته ، وفى نفس الوقت لا ينكر أحد تأثيره الروحى على المجتمع الذى يعيش فيه .

كلمات المديح

عجيبة محبة المسيح التى تعجله يمدح التراب والرماد !

هو يعرف ضعف البشرية . ومع ذلك نراه يشجع صغار النفوس (١ تس ٥ : ١٤) . يمدح البشر مع أن كل طرق الإنسان مثل خرقة الطامث (خر٣٦ : ١٧) . وها الرب قال لنا : « متى فعلتم كل ما أُمرتم به ، قولوا إننا عبيد بطالون » (لو١٧ : ١٠) . ومع ذلك هوذا يقول لنا : « أنتم ملح الأرض . أنتم نور العالم » ...

حتى إن قال هذا عن تلاميذه ، فهو كان يعرف ضعفاتهم : يعرف أنهم سيهربون ساعة صلبه و يتركونه وحده . يعرف مَنْ سينكره ، ومَنْ سيخاف ، ومَنْ سيظنه فى قيامته شبحاً ، ومَنْ سوف يشك ... ومع ذلك يقول عنهم : « أنتم ملح الأرض . أنتم نور العالم » ..!

قال هذا عن جهال العالم ، الذين سيخزى بهم الحكماء .

وقال هذا عن ضعفاء العالم الذين سيخزى بهم الأقوياء . وقال أيضاً عن هؤلاء الذين وصفهم بأنهم : « أدنياء العالم ، والمزدرى وغير الموجود » (١ كو١ : ٢٧ ، ٢٨) . ولكن الله عجيب فى محبته وفى تشجيعه وفى مدحه للبشر أولاده ...

بل إن الله إفتخر بعبده أيوب :

وفى ذلك قال للشيطان : « هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ لأنه ليس مثله فى الأرض : رجل كامل ومستقيم ، يتقى الله ويحيد عن الشر » (أى ١ : ٨) . وكرر هذا المديح مرة ثانية ، وأضاف عليه أن أيوب : « إلى الآن متمسك بكماله » (أى ٢ : ٣) ... مع أن الله كان يعرف ضعفات أيوب (أى ٤٠ : ٨) ...

الله يرفع المعنويات . والبشر ليسوا هكذا !

الله الكامل فى كل شىء ، الذى هو غير محدود فى كماله ، يحتمل ضعفات الناس . « قصبة مرضوضة لا يقصف . وفتيلة مدخنة لا يطفىء » (إش ٤٢ : ٣) . أما الناس فلا يحتملون ضعفات بعضهم البعض ، بينما كلهم معرضون للزلل والسقوط .

أتذكر أحد مدرسينا فى الجامعة : كان من فرط علمه ، يحتقر معلومات الطلبة . ففى تصحيح أوراقهم ، ما كان يكتفى بتقدير (ضعيف جداً) ، وهو أقل التقديرات حسب اللائحة ، بل كان يكتب على أوراق بعض الطلبة تقدير [حقير] !!...

أهمية الملح :

الملح شىء ضرورى ، لا يمكن الاستغناء عنه .

فى الحقيقة الملح أهم من السكر وأفيد ..

أنت لا تستطيع أن تستغنى عن الملح . ولكنك تستطيع أحياناً أن تستغنى عن السكر . والمعروف أن المواد النشوية تتحول فى الجسم إلى سكر . وأنت كذلك تستطيع أحياناً أن تستغنى عن بعض المواد النشوية ...

أما الملح فهو مادة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها .

مثال ذلك أنك قد تستغنى فى بيتك عن بعض الأثاثات والصور والتحف . ولكنك لا يمكن أن تستغنى مطلقاً عن الماء . إنه شىء أساسى كالملح .

يمكن للإنسان أن يستغنى عن أكل اللحوم ، ويمكنه الاستغناء عن كثير من الفاكهة الغالية الثمن . ولكنه لا يمكنه الاستغناء عن الملح . بل أحياناً حينما يصف

مودته وعشرته لإنسان ، يقول : [لقد أكلنا معاً خبزاً وملحاً] . حتى القرابين كان لابد أن يقدّم الملح معها (لا ٢ : ١٣) .

والملح على الرغم من ضرورته ، هو رخيص .

بإمكان الكل أن يحصل عليه . لأنه زهيد ، وهو فى متناول الجميع . أهميته ليست فى ثمنه ، وإنما فى ضرورته . وهكذا أولاد الله فى العالم . قد يكون بعضهم صياداً ، أو صانع خيام ، أو راعي غنم ، ولكنه ضرورى للعالم ، ومهم لتوصيل الكلمة إليه .

وهكذا كان تلاميذ الرب ضرورة ، وفى متناول الجميع .

هم الملح الذى لا يستغنى عنه العالم ، وبدونهم العالم لا يكون له طعم ، ولا يصلح . ليس فقط الكهنة ورجال الدين والوعاظ الذين يصلح العالم بهم ، إنما كل المؤمنين أيضاً . هذا الكلام قال الرب للجميع على الجبل ...

ليس المهم هو مركزنا أو منظرنا ، وإنما صلاحيتنا وثمرنا .

القديس أليشع النبى كان منظره من الخارج يثير سخرية الصبيان الصغار ، فيقولون له : « يا أقرع ... يا أقرع » (٢مل ٢ : ٢٣) . ولكنه كان يقيم الميت ويعمل المعجزات . وكان نوراً وملحاً لجيله . وكان الملوك ينظرون إليه كأب ومرشد (٢مل ١٣ : ١٤) .

والقديس الأنبا رويس كان منظره أيضاً مجالاً للسخرية أيضاً ، ويظنه البعض مجنوناً ، ولكنه كان بركة لجيله ، وما أكثر المعجزات التى تمت على يديه . ومازال نوراً إلى أيامنا هذه ...

ولعلنا نسأل : مَنْ هم أولئك الذين قال عنهم الرب أنتم ملح الأرض ؟

إنهم بالطبع أولئك الذين طوبهم قبلاً فى بدء عظته على الجبل : أعنى المساكين بالروح ، والودعاء ، والرحماء ، وأنقياء القلب ، وصانعى السلام ... وليس الوعاظ فقط ورجال التعليم ... لأن الدين ليس هو مجرد كلام ، بل هو روح وحياة (يو ٦ : ٦٣) .

بل هؤلاء المطوبون هم الذين يصلح العالم بهم ..

وإن أراد الوعاظ أن يكونوا ملحاً ، فليكونوا بتلك الطوبى .

ما أكثر الكهنة وما أكثر الوعاظ . ولكن تأثيرهم جميعاً لا يعادل تأثير شخص

واحد مثل بولس الرسول ، لأن الله لا يعظ بهم ، مثلما كان يعظ ببولس . أو ربما لأن بعضهم مجرد وعاظ وليسوا نوراً !

ولكن ينبغى ألاّ نلقى العيب كله على الكنيسة وخدامها ، فكل منكم عليه مسئولية . وواجبه أن يقول مع يشوع النبى :

« أما أنا وبيتي فنعبد الرب » (يش ٢٤ : ١٥) .

ولو أن كل أسرة إهتمت روحياً بأولادها ، ما إحتجنا إلى وعاظ ومعلمين ومدرسى دين . ولو أن كل أب وكل أم كانا نوراً لأولادهما وقدوة فى السلوك المسيحى ، لو حدث هذا ، لامتلأت الكنيسة بالقديسين . وهذا ما أقوله للذين يأتون بأولادهم لنوال سر المعمودية المقدس ...

ونضرب مثلاً بأم موسى النبي وتأثيرها عليه .

القديسة يوكابد أم موسى (خر ٦ : ٢٠) إستلمته من ابنة فرعون وعمره ثلاثة أشهر (خر٢ : ٢) وأرضعته ليس فقط لبنها الجسدى ، وإنما أرضعته أيضاً الإيمان والعقيدة السليمة . ولما كبر سلّمته لإبنة فرعون فصار لها ابناً (خر٢ : ١٠) . كم سَنَة قضاها موسى مع أمه ؟ ثلاث سنوات ؟ أربعاً ، أو خمساً ؟! أياً كانت تلك المدة القصيرة ... ولكنه تلقى فيها الإيمان الذى بقى معه طوال عمره ، وهو فى قصر الأميرة محاطاً بالعبادات الفرعونية من آلهة مصر القديمة ... ولم يبقَ موسى مؤمناً فقط ، بل صار زعيماً للإيمان فى جيله ، ومقدماً الإيمان لكل الأجيال ...

طوباها القديسة يوكابد . كانت نوراً وملحاً .

أتذكر بهذه المناسبة أننى رأيت مرة بطة وقد رقدت على بيضها حتى فقس ، ثم قامت تتمشى وحولها وورائها حوالى عشرين من الكتاكيت الصغار وهى فرحة بهم ... وكان منظراً مبهجاً ، وكأنها كانت تغنى مع النبى :

« هأنذا والأولاد الذين أعطانيهم الرب » (إش ٨ : ١٨) .

وأنت ، مَنْ هم الأولاد الذين تقدمهم إلى الله ، حين تلتقى به فى يوم الدينونة الرهيب ؟ لكى تشترك مع السيد المسيح « وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد » (عب ٢ : ١٠ ، ١٣) ...

هل تقف بمفردك فى ذلك اليوم ، كغصن بلا ثمر ؟!

حاشا لك أيها الأخ المبارك أن تفعل هذا ... بل اذكر مثل أصحاب الوزنات ، حينما تقدم صاحب الخمس الوزنات وقال : « يا سيد ، خمس وزنات سلمتنى . هوذا خمس وزنات أُخر ربحتها فوقها » فاستحق أن يسمع منه تلك العبارة المعزية : « نعماً أيها العبد الصالح والأمين . كنت أميناً فى القليل ، فأقيمك على الكثير . ادخل إلى فرح سيدك » . وهكذا أيضاً فعل صاحب الوزنيتن (مت ٢٥ : ٢٠-٢٣) .

إننى أعجب من أشخاص قليلين غيروا مجرى العالم روحياً ...

أعجب من إثنى عشر رسولاً وبولس ، إلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم (مز ١٩ : ٤) . وأعجب كذلك من عدد قليل من الأنبياء فى العهد القديم ، هم الذين قادوا الايمان فى تلك الأجيال ...

إنهم عدد قليل ، ولكنهم كانوا نوراً للعالم ، وكانوا ملحاً للأرض . وتميزت بهم أجيالهم ...

فنقول هذا جيل إيليا ، وهذا جيل أليشع ..

وهكذا كان كل جيل له نوره الذى ائتمنه الرب على هدايته . فنقول هذا عصر إرميا ، وتلك كانت أيام صموئيل وداود ...

وما نقوله عن عصور الأنبياء والرسل ، نقوله أيضاً عن التاريخ ... حدث فى أيام القديس أثناسيوس ، أو أيام القديس كيرلس ، أو فى عصر القديس أنطونيوس الكبير ، أو فى أيام الأنبا إبرآم أسقف الفيوم ...

كلهم كانوا أنواراً فى أجيالهم ، ولأجيال بعدهم . وكان لهم ثمر ...

صدقونى ، من حبة القمح نتعلم درساً .

تلقيها فى الأرض ، فتعمل ثم تقدم لك ثمراً وفيراً : « أولاً نباتاً ، ثم سنبلاً ، ثم قمحاً ملآن فى السنبل » (مر ٤ : ٢٨) . كل هذا الثمر من حبة واحدة . ونفس الوضع بالنسبة إلى النخلة ، كم تعطى من بلح ، وباستمرار . وكذلك كل شجرة مثمرة ، كم تعطى فى كل موسم ؟...

وأنت ما هو ثمرك ؟ ثمرك الجيد ...

إن كنت نوراً ، لابد أن يكون لك ثمر ... إستيقظ إذن لنفسك ، واهتم بعملك الروحى . ألاّ تعلم أن الكتاب يقول : « كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ، تُقطع وتلقى فى النار » (مت ٣ : ١٠) .

خذوا درساً من الأرض التى تدور ولا تتوقف :

منذ آلاف السنين ، منذ خلقها ، وهى تدور باستمرار حول محورها ، وتنتج فى كل دورة ليلاً ونهاراً ، ملايين خلال تلك السنين ، بلا توقف . تُرى لو سئمت الأرض دورانها ، وتكاسلت ، وإتكأت قليلاً على محورها لتستريح ، لكى تستريح ..! أما كان العالم يرتبك ؟! ولكن الأرض فى حركتها دائبة ، دائمة ، وفى إنتاج مستمر ، تعمل العمل الذى أوكله الرب إليها ...

والملح يعمل أيضاً بحكمة ، لا يزيد عن الحاجة ولا ينقص .

إن زاد عن القدر اللازم ، يفسد الطعام ، وإن قل عن القدر اللازم ، لا يكون للطعام طعم . هكذا المرشد الحكيم لا يقدم للناس روحيات فوق مستواهم ، لئلا يتعبهم الغرور . ولا يعطيهم أقل من المستوى لئلا يتعبهم الفتور .

داود كان حبة ملح صغيرة ، حينما دخل فى ساحة الحرب بينما جليات يعيّر الجيش كله . ولكنه كان سبب بركة لكل الشعب ، وبه تم الإنتصار وتمت الفرحة . وأول ما ظهر ، صار سيداً للموقف .

وأثناسيوس كان شماساً صغيراً وسط مجمع مسكونى يضم ٣١٨ أسقفاً . ولكنه كان الملح الذى ملّح الجيل كله ، وعلّم الناس الإيمان السليم ، وقيل [مرّ وقت كاد فيه العالم كله أن يصير أريوسياً لولا أثناسيوس] .

واسطفانوس كان هو أيضاً حبة ملح صغيرة ، مجرد شماس ، لا قس ولا أسقف ولا رسول . ومع ذلك نشر الإيمان ، وصنع العجائب ، وأفحم ثلاثة مجامع « ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذى كان يتكلم به » (أع ٦ : ١٠) .

وأنت ، ماذا فعلت ؟ هل كنت نوراً لغيرك ؟

الملح والنور

وكما أن الملح لازم للكل ، كذلك النور لازم للكل .

عبارة أنتم ملح ، وعبارة أنتم نور ، كلاهما تعنيان : أنتم ضرورة لازمة لنفع العالم . لستم فقط لأنفسكم ، وإنما لخير البشرية كلها . بكم يصل الإيمان إلى العالم ، وبكم يعرفون الطريق الروحي . وبكم يقومون من سقطاتهم ، و يرجعون إلى الله . النور يضيء للكل .

إهتموا إذن بالكل ، مهما كان جنسه أو لونه .

إذهبوا إلى السامريين وإلى الأمم ، كما تذهبون أيضاً إلى اليهود .. إكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (مر١٦ : ١٥) . إشرقوا على الكل ، كالشمس ، ولا تفرقوا بين الناس فى المعاملة والاهتمام .

هناك معنى نفهمه من كلمتى « العالم » و « الأرض » .

أى فى كل مكان ... « أنتم ملح الأرض . أنتم نور العالم » أى فى كل مكان توجدون فيه يشرق نوركم ، كالشمس التى تشرق على كل أحد بدون تمييز .. وهكذا أنت حيثما حللت يقولون عنك : حقاً هذا من أولاد الله و ينتفع منك الكل . و يمتلىء المكان حرارة وعملاً ، و ينتشر فيه ملكوت الله ، بنورك ...

الشمس تدخل بيت الملك ، وتدخل بيت الخادم والكناس .

الكل يحتاجون إليها ، والكل يتمتعون بها . وهى لا تفرق بين عظيم وحقير ، أو بين غنى وفقير ، إنما هى للكل . كذلك أولاد الله يهتمون بكل أحد . يفتقدون الجميع . يزرون الأبرار ، والأشرار أيضاً .

أنظر إلى الشمعة تضيء للوزير كما للخفير ..

ولا يزداد إشتعالها فى بيت الكبير ، بينما يقل فى بيت الفقير . كلا ، إنها نور للكل ، ينتفع الكل بها . ليت الجميع يأخذون منها درساً فى الإفتقاد وفى الخدمة وفى البذل ...

والنور يطهر كل مكان ، ولا يتنجس به ..

النور يدخل مخدع الأمير ، و يدخل زريبة الغنم ، دون أن يتنجس بها . هكذا أنتم إن ذهبتم إلى الخطاة ، لا تعثرون بهم بل يمكنكم قيادتهم إلى التوبة .

وكما أن الشمس تشرق على الصالحين والظالمين ، وتعطى من نورها للمستحق وغير المستحق ، هكذا أنتم فى عطائكم للكل .

عملكم أن تعطوا ، وليس عملكم أن تدينوا .

عملكم أن تكونوا بركة للعالم ، كما كان إيليا فى بيت الأرملة ، وكما كان يوسف فى أرض مصر ، وكما كان إبراهيم بركة للعالم كله .

إن النور يضيء ، دون أن تطلب منه .

لا تنتظرك الشمس حتى تطلب منها ضوءاً ، وكذلك القمر ، بل كلاهما ينيران لك دون أن تطلب ، و يضيئان لك الطريق دون أن تطلب . هكذا أولاد الله بالنسبة إلى العالم ، أرسلهم الله ليعطوا العالم من الخير الذى فيهم ، حتى إن تباعد العالم عنهم ولم يسأل ...

المهم . هل أنت نور ؟ هل أنت ملح ؟ لا يستهن أحد بحداثتك (١ تى ٤ : ١٢) .

« الله لم يره أحد قط » (يو ١ : ١٨) . ولكن أنت صورة الله . الناس يرون صورة الله فيك . ويحبون الله فى شخصك . وكابن لله ، تكون على صورته ، كما خُلقت من قبل على صورته (تك ١ : ٢٧) .

القديس بولس الرسول يقول : « نسعى كسفراء للمسيح ، كأن الله يعظ بنا » (٢ كو٥ : ٢٠) .

والسفير هو مندوب دولته وممثلها ، يعطى فكرة عنها . هكذا سفير المسيح ، يعطى فكرة عن المسيحية . إن تصرفنا بطريقة روحانية ، نعطى فكرة عن روحانية المسيحية . وإن أسأنا فى سلوكنا ، إنما نسيء إلى المسيحية دون أن نقصد . ربما لم يدرس كل أحد تعاليم المسيحية ، ولكنهم يعرفون ذلك من حياتنا .

كثيرون لا يفرقون بين الدين ومعتنقى الدين :

إن كان حكام الهند وجنوب أفريقيا المسيحيون ، قد أساءوا إلى المسيحية بسلوكهم ، هكذا نحن ما أسهل أن يُساء إلى المسيحية بسببنا . إن كان المسيحيون يطلقون نساءهم ــ ولو بأسباب لا تقرها المسيحية ــ يقول الناس : يوجد طلاق فى المسيحية لأسباب متعددة ، حتى لمجرد إحتدام الخلاف بين الزوجين !! بينما المسيحية لا توافق على كل هذا ...

عجيب هو الرب فى قوله لنا : أنتم نور العالم !

ذلك لأنه يلقبنا بلقبه ، ويسمينا باسمه .

لأنه قال أيضاً عن نفسه : « أنا هو نور العالم . مَنْ يتبعنى لا يمشى فى الظلمة » (يو٨ : ١٢) . وقال : « مادمت فى العالم ، فأنا نور العالم » (يو٩ : ٥) .

إنه النور الذى جاء إلى العالم . وأحب العالم الظلمة أكثر من النور ، لأن أعمالهم كانت شريرة (يو٣ : ١٩) .

فإن الله هو النور ، ونحن أيضاً نور ، فما هو الفارق إذن بين نورنا ونور الله ؟

إنه النور الحقيقى الذى ينير لكل إنسان .

هكذا قيل عنه فى الإنجيل (يو ١ : ٩) . وأمام نوره قيل عن يوحنا المعمدان ، الذى هو أعظم مَنْ ولدته النساء (مت ١١ : ١١) . قيل عنه : « لم يكن هو النور ، إنما ليشهد للنور » (يو١ : ٨) . نعم إن الله هو النور الحقيقى ، ونحن بنوره نعاين النور ..

نحن نير ، كلما نقترب من الله ، النور الحقيقى .

وتشبيه ذلك نور الشمس ، ونور القمر .

الشمس نور فى ذاتها . أما القمر فهو كوكب مظلم ، يستمد نوره من الشمس كلما إقترب من الشمس يظهر نوره و يزداد ، أقصد نور الشمس المنعكس عليه ...

أما إذا إبتعد عن الشمس ، فإنه يبدو على حقيقته ظلاماً ، كما فى حالة المحاق ، فى آخر الشهر العربى .

ماذا يعنى إذن قول الرب : « أنتم نور العالم ؟ » معناه :

إقتربوا منى ، لكى تصبحوا نوراً . وحينئذ يمكنكم ــ بنورى الذى فيكم ــ أن تنيروا لغيركم .

إن سلكنا كأبناء لله ، نصبح أبناء النور (لو١٦ : ٨) .

نعم « إن سلكنا فى النور ، كما هو فى النور » (١ يو ١ : ٧) .

ولهذا يقول معلمنا بولس الرسول : « كنتم قبلاً ظلمة . وأما الآن فنور فى الرب . اسلكوا كأولاد نور » (أف ٥ : ٨) . ويقول أيضاً : « جميعكم أبناء نور ، وأبناء نهار .. » (١ تس ٥ : ٥) .

كل إنسان يعاشر الله ، يفيض الله عليه من نوره ، فيضيء ، ويرى الناس نوره .

من الناحية الروحية ، يظهر نور الله فى حياته .

ومن الناحية الجسدية ، قد يظهر النور فى وجهه أيضاً . مثال ذلك قصة موسى النبى . لما نزل من الجبل من عند الله ، ولوحا الشهادة فى يده ، كان جلد وجهه يلمع ، فخافوا من الاقتراب إليه . وجعل موسى على وجهه برقعاً من شدة ضياء وجهه (خر ٣٤ : ٣٠-٣٥) .

وعلى جبل التجلى ، التحف موسى وإيليا بالنور ، لأنهما كان إلى جوار المسيح ، ففاض عليهما بنوره ...

عش إذن مع المسيح ، وخذ من نوره . ولا تفتخر باطلاً بأنك نور العالم ، إن كنت بعيداً عن مصدر النور .

إذن عبارة أنتم نور العالم ، يعنى بها الرب بالنسبة إلينا ، ما ينبغى أن نكون عليه ، أو ما ينبغى أن نصير إليه ، كلما كنا ثابتين فيه ...

إننا نصير ملحاً للأرض ونوراً للعالم ، كلما إرتفعنا فى الروحيات . ولذلك ذكر الرب عبارة « على جبل » .

على جبل

يقول السيد الرب : « لا يمكن أن تخفى مدينة كائنة على جبل » . وهذا التشبيه يعطينا فكرة عن الإرتفاع الذى يجب أن نصل إليه ، صاعدين فى الحياة الروحية ، حتى نصبح كمدينة على جبل . ولهذا يقول الرب فى نفس العظة :

« فكونوا أنتم أيضاً كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٨) .

إن الحياة الروحية إذن هى سعى إلى الكمال المسيحى ، باعتبار أننا « صورة الله » و ينبغى أن نصل إلى مستوى هذه الصورة .

إن كان لازماً أن تصير نوراً للعالم ، فيتبغى أن تصعد إلى فوق ، إلى قمة الجبل فى الروحيات . أما إن كنت لا تزال على السفح ، تزحف فى صعوبة ، فكيف إذن تكون قدوة ، وكيف يرون الله فى حياتك ؟!

وأنت كلما ترى المستوى المطلوب عالياً عليك ، حينئذ تتضع نفسك . وكلما تتضع يرفعك الله .

ذلك لأنه يعطى المتواضعين نعمة ، كما أن حياة الإتضاع هى فى حد ذاتها نور للآخرين ، وقدوة ...

وتشبيه الجبل هو أيضاً تشبيه المصباح الذى على المنارة .

ولكن ماذا يحدث إذا لم نصعد إلى القمة ، وحتى لم نزحف عند السفح ، بل رجعنا إلى الوراء ، وفقدنا النور الذى فينا ؟ وفسد ملحنا ؟

ماذا يحدث إذا فقط الملح ملوحته وملاحته ؟ إذا فقد الخادم صلاحيته ؟ وإذا فقد المسيحى قدوته ؟ والمنارة أيضاً : ماذا يحدث إذا تزحزحت من مكانها ؟ (رؤ٢ : ٥) .

إنه إفتراض قائم وممكن . فليس أحد معصوماً .

والسيد المسيح ذكر هذا الفرض فقال : « أنتم ملح الأرض . ولكن إن فسد الملح ، فبماذا يملح ؟! لا يصلح بعد لشىء إلاَّ أن يُطرح خارجاً و يداس من الناس » (مت ٥ : ١٣) .

والسيد المسيح يكرر نفس الفرض بالنسبة إلى النور فيقول فى نفس العظة على الجبل :

« إن كان النور الذى فيك ظلاماً ، فالظلام كم يكون ؟! » (مت ٦ : ٢٣) .

النور الذى يضىء للآخرين أو للشخص نفسه ، إذا صار ظلاماً ، فمن أين يأتيه النور . كمثال العين : هى البصر والنور بالنسبة إلى صاحبها . فإن أظلمت العين ، هل هناك عضو آخر يستطيع أن يصير مصدراً للنور؟! وهذه العين المظلمة ، هل تصلح بعد لشىء . كذلك أنتم إذا فسد الملح الذى فيكم ...

إذا فسد الرعاة والقادة والمعلمون ، ماذا يحدث ؟

حدث هذا على مرّ التاريخ بالنسبة إلى الشعب اليهودى ، فقال لهم الرب : « يا شعبى ، مرشدوك مضلون » (إش ٣ : ١٢) « صار مرشدو هذا الشعب مضلين » (إش ٩ : ١٦) .

وفى أيام تجسد الرب وخدمته على الأرض ، كان معلمو الشعب مخطئين ، يضللونه بتعاليمهم وتقاليدهم الخاطئة . ونذكر من بين هؤلاء : الكتبة والفريسيين والصدوقيين والكهنة وشيوخ الشعب ..

وماذا تكون النيجة إذا فسد القادة ؟ يقول الرب :

« أعمى يقود أعمى ، كلاهما يسقطان فى حفرة » (مت ١٥ : ١٤) .

لذلك سماهم الرب « عميان قادة عميان » (مت ١٥ : ١٤) . وقال إنهم : « يغلقون ملكوت السموات قدام الناس » (مت ٢٣ : ١٣) . وقال لهم : « تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً . ومتى حصل تصنعونه ابناء لجهنم أكثر منكم مضاعفاً » . وسماهم القادة العميان أكثر من مرة (مت ٢٣ : ١٥ ، ١٦ ، ٢٤) .

يفسد الملح إذن ، إذا إنحرف المعلم فى الفهم الدينى للعقيدة أو فى فهمه لروحانية الوصية .

والتاريخ يقدم لنا أمثلة بارزة جداً فى الإنحراف العقيدى لأشخاص كانوا فى جيلهم ملحاً للأرض :

أريوس الذى كان أشهر واعظ فى عصره ، وكان شعلة من ذكاء متقد ، وكيف إنحرف فى إيمانه حتى عقد ضده أول مجمع مسكونى فى العالم ، وتم تجريده من الكهنوت وقطعه من كنيسة الله . وأصبحت تنطبق عليه عبارة الرب : « لا يصلح بعد لشىء ، إلاَّ أن يُطرح خارجاً و يداس من الناس » .

ونسطور ومقدونيوس وكان كل منهما بطريركاً للقسطنطينية .

كل منهما كان رئيساً لشعب ، وكان معلماً . ووقع مقدونيوس فى الهرطقة وحرمه المجمع المسكونى الثانى . وكذلك وقع نسطور فى الهرطقة وحرمه المجمع المسكونى الثالث ، وضاعت هيبتهما ، وفقدا كهنوتهما ، وأصبحا يداسان من الناس .

وبالمثل **أوطاخى** الذى كان رئيساً لرهبنة ومن أتقى رهبان القسطنطينية . وكان ملحاً لحياة النسك . ووقع هو أيضاً فى الهرطقة وحرمته الكنيسة .

وأوريجانوس الذى كان أعلم علماء عصره ، وأكبر اللاهوتيين ليس فى زمانه فحسب ، بل كان إحدى القمم العالية على مدى التاريخ ، سقط هو أيضاً وحرمه البابا ديمتريوس ، وحرمه قديسون آخرون ، بل كنائس أيضاً ومجامع ...

وليس هذا فقط ، بل أنبياء أيضاً ، فسد ملحهم .

ولعلنا نذكر فى مقدمة هؤلاء **بلعام** ، الذى تنبأ بنبوءات جيلة عن السيد المسيح (عد ٢٤ : ١٧) . بلعام الذى كان عليه روح الله ، الرجل المفتوح العينين ، الذى يسمع أقوال الله ، الذى يرى رؤى القدير مطروحاً وهو مكشوف العينين (عد ٢٤ :

٢-٤). بلعام الذى يستدعيه بالاق ملك موآب ويخرج لاستقباله فيقول له: « ولو أعطانى بالاق ملء بيته فضة وذهباً، لا أقدر أن أتجاوز قول الرب لأعمل خيراً أو شراً من نفسى. الذى يتكلمه الرب إياه أتكلم» (عد ٢٤: ١٣) ...

بلعام النبى، على الرغم من رؤاه ونبواءته وأقواله، فسد!

ويشهد بذلك الرب نفسه — فى سفر الرؤيا — فى رسالته إلى ملاك كنيسة برجاموس، فيعتب عليه لأن عنده قوماً متمسكين بتعليم بلعام (رؤ ٢: ١٤). وفسد هذا الملح، وأصبح يداس من الناس ...

فساد الملح قد يكون من الناحية الفكرية، أو من الناحية السلوكية.

ونضرب مثلاً لذلك شمشون قاضى إسرائيل:

وكان شمشون قد حلّ عليه روح الرب، وأصبح روح الرب يحركه (قض ١٣: ٢٥) وصنع به الرب عجائب. وكان نذيراً للرب من بطن أمه، حسب نبوءة ملاك الرب عنه (قض ١٣: ٥، ٧). ولكن فسد هذا الملح فترة من الوقت، فأضاعته دليلة وامرأة زانية أخرى. وفارقه الرب، وقلعوا عينيه، وأوثقوه بسلاسل نحاس، وكان يطحن فى بيت السجن (قض ١٦: ٢٠، ٢١).

وأصبح شمشون يُداس من الناس، ولكن إلى حين.
هذا ملح فسد، ثم عادت إليه ملوحته.

وابتدأ شعره — علامة نذره — ينبت من جديد (قض ١٦: ٢٢). وصنع الرب به خلاصاً فى آخر آيامه، وإن كان قد دفع حياته ثمناً لهذا الخلاص. وعاد بولس الرسول، فذكره بين رجال الإيمان (عب ١١: ٣٢).

لعلنا نذكر فى هذا المجال سليمان الحكيم أيضاً:

كان هو أيضاً ملحاً للأرض. ظهر له الله مرتين: فى أورشليم وفى جبعون (١مل ٩: ٢). وباركه الرب، ووهبه حكمة أكثر من كل أهل الأرض (١مل ٣: ١٢). وكلّمه الله فماً لأذن. ونطق الروح القدس بالوحى على شفتيه، فكتب أسفاراً من الكتاب المقدس مملوءة بالأمثال والحكمة. ولكن ماذا حدث بعد هذا ...

أخيراً ، حدث فساد للملح ، بمأساة فى أواخر أيام سليمان .

يقول الكتاب فى ذلك عن سليمان : « وكانت له سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السرارى . فأمالت النساء قلبه . وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى . ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين ... وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن و يذبحن لآلهتهن » (١ مل ١١ : ٣-٨) .

أتُرى هذا الملح طُرح خارجاً وديس من الناس ؟! لنا رجاء أن الله رحمه .

لقد تاب سليمان فى آخر أيامه ، وكتب سفر الجامعة الذى قال فيه عن كل متع العالم التى مارسها : « باطل الأباطيل . الكل باطل وقبض الريح » (جا ١ : ٢ ، ١٤) . والدليل على رحمة الرب له ، أن الرب قال لداود أبيه : « أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك ، وأثبت مملكته ... إن تعوّج أؤدبه ... ولكن رحمتى لا تنزع منه كما نزعتها من شاول ... » (٢ صم ٧ : ١٢ ، ٢٤ ، ١٥) .

هنا نفرق بين الملح الذى إتسخ ، والملح الذى فقد ملوحته وفقد طبيعته .

كان سليمان من الملح الذى إتسخ ، ولكنه إحتفظ بملوحته ، أى بطبيعته التى تحب الله ...

وكان أبوه داود ، ملحاً إتسخ حيناً .

داود الذى مسحه الرب ، وحل عليه روح الرب . وقال عنه : فحصت قلب داود فوجدته حسب قلبى .. ثم إتسخ هذا الملح . فوقع داود فى الزنا ، وفى القتل ، وفى رغبة الإنتقام لنفسه ، وفى سفك الدماء ... ولكن لم يحدث أن الله جعله يُطرح خارجاً و يُداس من الناس ... ولكن على العكس غسله ، فابيض أكثر من الثلج (مز ٥٠) .

يداس من الناس :

أما الذى ديس من الناس ، فهو شاول الملك :

حل عليه روح الرب ، وصار مسيحاً للرب ، وتنبأ ، حتى قال الناس عنه :

« أشاول أيضاً بين الأنبياء ؟! » (١ صم ١٠ : ١٠، ١١). ثم حدث لهذا الملح أنه فسد: تكبر، واستقل عن الله، ونفذ مشيئته الخاصة، ولم يهتم بمشيئة الرب، ولا بمشورة نبيه العظيم صموئيل. وانتهت حياته بمأساة، قال فيها الوحي الإلهي:

« وذهب روح الرب من عند شاول، وبغته روح ردىء من قبل الرب » (١ صم ١٦ : ١٤).

ومن الملح الذى داسه الناس أيضاً، كما سبق وذكرنا: بلعام النبى، والمعلمون الكذبة الذين جاءوا قبل المسيح مثل: ثوداس، ويهوذا الجليلى (أع ٥ : ٣٦، ٣٧). وهؤلاء وأمثالهم الذين قال عنهم السيد الرب: « كل الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص. ولكن الخراف لم تسمع لهم » (يو ١٠ : ٨).

ألعلنا نذكر من الملح الذى فسد: أبانا آدم، وأمنا حواء.

كان آدم صورة الله ومثاله. الله خلقه على شبهه، هو وحواء (تك ١ : ٢٦) وأعطاهما أن يتسلطا على سمك البحر وعلى طير السماء وكل ما يدب على الأرض. وكانا فى حالة من النقاوة والطهارة والبساطة لم يصل إليها أحد من البشر من بعد، وكانا لا يعرفان الخطية ولا يخجلان من عريهما ...

ثم فسد هذا الملح، فسدت الطبيعة البشرية.

وطرح آدم وحواء خارج الجنة، وديس نسلهما، وأصبحت الحية لها سلطان أن تسحق عقبه (تك ٣ : ١٥). ولكن الله أعاد لهذا الملح ملوحته، حينما تجسد وبارك طبيعتنا فيه. ورد آدم إلى رتبته الأولى ...

لذلك لنا أمل: كلما فسد الملح، أن يعيد الله له ملوحته ...

وإن إتسخ الملح، ينقيه الرب، ويهبه نعمة التجديد لهذه الطبيعة الفاسدة. ولا يقول عنه إنه لا يصلح بعد لشىء. ولنا مثال هام هو:

قصة القديس بطرس الرسول فى نكرانه للمسيح.

لقد سب ولعن، وقال لا أعرف الرجل. وسقط بذلك فى عديد من الخطايا: الخوف، ونكران سيده، وقلة الإيمان، والكذب، والسب واللعن ... أتراه كان فى ذلك الوقت ملحاً للأرض ونوراً للعالم ؟! كلا، لم يكن وقتذاك كذلك ...

ولكن السيد المسيح أعاد إليه ملوحته .

ولم يسمح لهذا القديس أن يُداس من الناس . وكان ذلك حينما رده إلى رتبة الرسولية ، وأعفاه من ذلك الحكم «مَنْ ينكرنى قدام الناس ، أنكره أنا قدام أبى الذى فى السموات » (مت ١٠ : ٣٣) . وهكذا قال له بعد القيامة : « ارعَ غنمى ... إرعَ خرافى ... » (يو٢١ : ١٥ ، ١٦) .

رحماك يارب بالملح الذى يفسد حيناً ، أو يتغير طعمه .

هذا الذى يتعرض لضعف عارض من ضعفات البشر . وعلى الرغم من سقوطه ومن تغير طعمه فى ذلك الوقت ، يتمسك بملوحته و يقول لك : « أنت تعلم يارب كل شىء . أنت تعرف أنى أحبك » (يو٢١ : ١٧) .

إن الملح يفسد بالإنحراف الفكرى والعقيدى ، كما حدث للهراطقة ، وللقادة العميان .

و يفسد أيضاً بالإنحراف السلوكى .

كما حدث لداود فى زناه ، ولشمشون فى إنقياده وراء النساء وكسره لنذره ... وكما حدث لبلعام فى تقديم المشورة المهلكة لعفة الشعب ونقاوته وقد غفر الله لداود وشمشون . وهلك بلعام .

وقد يفسد الملح بالكبرياء .

كان الشيطان ملحاً فى بدء خلقه قبل أن يسقط . كان فى مجد و بهاء الملائكة . ثم فسد هذا الملح حينما قال فى قلبه : « أصعد إلى السموات . أرفع كرسىّ فوق كواكب الله ... أصير مثل العلىّ » (إش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . وكانت النتيجة أنه طرح خارجاً ، خارج السماء وصحبه الملائكة . وأصبح يداس من الناس ... من الذين أعطاهم الرب سلطاناً أن يدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو .

إن مسئولية الملح فى فساده تزداد بمركز مَنْ قد صار ملحاً .

والشيطان كان ملاكاً . لذلك كان فساد هذا الملح أمراً خطيراً . وكذلك كل مَنْ كان فى رتبة الكهنوت أو طغمة الإكليروس المفروض فيهم أن يكونوا نوراً للعالم وملحاً للأرض . لذلك قال الرب لملاك كنيسة لاوديكية : « أنا مزمع أن أتقيأك من فمى »

(رؤ٣ : ١٦) . وبهذا يكون قد طرح خارجاً كقيء .. لا يصلح بعد لشيء ..

فى التمييز بين مسئولية الرتبة ، يقول الأب الكاهن وقت تقدمة الحمل على المذبح :

« عن خطاياى ، وجهالات شعبك » ...

فسقطته هو خطيئة ، وليست جهالات مثل زلات سائر الشعب . ذلك لأنه من فم الكاهن تُطلب الشريعة (ملا ٢ : ٧) فلا يستطيع أن يقول : كنت أجهل ...

لذلك بقدر إرتفاع قدر الإنسان ، ترتفع مسئولية خطيئته ...

وبخاصة أولئك الذين هم فى موضع القدوة بالنسبة للناس ، والذين يجلسون على كرسى التعليم ...

فرق بين سقطة الإنسان من الطابق الأول فى منزل ، وسقطة آخر من الطابق العاشر ، وسقطة ثالث من مدينة كائنة على جبل ، أو من أعلى المنارة التى تضيء لكل الناس .

ما معنى أن الملح الذى يفسد ، يُطرح خارجاً ؟

يطرح خارجاً

الله الذى شجع الناس وقال لهم : « أنتم نور العالم ، أنتم ملح الأرض » قال فى عدله الذى لا يحابى أحداً : إن الملح إذا فسد ، يُطرح خارجاً و يُداس من الناس ...

يُطرح خارجاً هنا على الأرض .
وأيضاً يُطرح خارجاً هناك فى الأبدية .

هنا على الأرض قال يوحنا الرسول : « لا تقبلوه فى البيت ، ولا تقولوا له سلام » (٢يو١٠) . وهكذا حدث لديماس الذى كان مساعداً فى الخدمة لبولس الرسول . كان كارزاً وملحاً . ولما فسد ، هو نفسه طرح نفسه خارجاً ، إنفصل عن جماعة المؤمنين . وقال عنه القديس بولس : « ديماس تركنى لأنه أحب العالم الحاضر» (٢تى ٤ : ١٠) .

وهكذا كانت الكنيسة تفصل هؤلاء من عضويتها .

كما فصلت من جماعة المؤمنين كل صفوف المراطقة . وكل مَنْ ينطبق عليه قول بولس الرسول : « إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم به ، فليكن أناثيما » (غل ١ : ٨) أى فليكن محروماً ومقطوعاً من الكنيسة ، وليُطرح خارجاً .

الكنيسة هى مجموعة قديسين ...
ولابد أن تحتفظ بهذه القداسة .

وهذا المعنى واضح جداً فى الكتاب المقدس فى العديد من مواضعه . فالقديس بولس الرسول حينما يرسل رسالته إلى أهل أفسس ، إنما يوجهها « إلى القديسين الذين فى أفسس » (أف ١ : ١) . ويرسل إلى فيلبى فيقول : « سلّموا على كل قديس فى المسيح يسوع ... يسلّم عليكم جميع القديسين الذين من بيت قيصر» (فى ٤ : ٢١ ، ٢٢) . وهو يرسل إلى العبرانيين فيقول لهم : « أيها الإخوة القديسون ، شركاء الدعوة السماوية » (عب ٣ : ١) . ويرسل إلى أهل كولوسى « إلى القديسين فى كولوسى ... » (كو١ : ٢) فيقول لهم : « إلبسوا كمختارى الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ... » (كو٣ : ١٢) . وهو يرسل إلى « كورنثوس مع القديسين أجمعين الذين فى أخائية » (٢ كو١ : ١) .

ومادامت الكنيسة مجموعة قديسين ، فإنها تقول مع المرتل :
« ببيتك تليق القداسة يارب » (مز ٩٣ : ٥) .

وهكذا لم يدخل الكنيسة إلاّ القديسون . أما الخطاة فكانوا يقفون خارجاً ، يتضرعون إلى الداخلين والخارجين أن يصلوا لأجلهم . وكان الإيبدياكون يحفظ أبواب الكنيسة ، ويمنع الخطاة الذين عليهم أحكام من دخولها .
وبهذا الحزم إحتفظت الكنيسة بقداستها .

القديس يوحنا ذهبى الفم منع الإمبراطورة من دخول الكنيسة ، لأنها ظلمت أرملة ورفضت أن تنصفها . ولم يهمه أنها الإمبراطورة ، وأنه معرض أن يدفع ثمن هذا الحزم ... وأيضاً قصة القديسة مرثا التائبة تعطينا فكرة عن منع الخطاة من دخول الكنيسة .

والقوانين الكنسية واضحة فى هذا الأمر .

فالمؤمنون هم أعضاء جسد المسيح (١ كو ٦ : ١٥) . وأعضاء المسيح مقدسه . وكل مَنْ لا يكون مقدساً ، لا يبقى كعضو فى جسد المسيح ... بل يبقى خارجاً .

• • •

وفى الأبدية أيضاً ، الملح الفاسد يُطرح خارجاً ..

والكتاب يتحدث عن العقوبة فى الظلمة الخارجية :

يقول عنهم الرب إنهم : « يُطرحون إلى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » (مت ٨ : ١٢) . وقد قال عن العبد الذى دفن وزنته فى الأرض : « إطرحوه إلى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » (مت ٢٥ : ٣٠) ... هؤلاء يمكثون خارج النعيم الأبدى ، خارج مجمع القديسين ، خارج سكنى الله مع الناس ، خارج النور ، نور الله وقديسيه ... هناك فى الظلمة .

وقد تكررت عبارة « الخارج » و « خارجاً » ، فى مجال العقوبة الأبدية .

فى مثل العذارى . دخلت الحكيمات إلى العرس . أما زميلاتهن اللائى لم يكن معهن زيت ، فقد وقفن خارجاً ، يصرخن بلا أمل قائلات : « يا سيد إفتح لنا » (مت ٢٥ : ١١) . فيجيبهن قائلاً : « الحق أقول لكن إنى ما أعرفكن » .

وقد أوضح الرب هذا الأمر بقوله : « إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون . من بعد ما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب . وابتدأتم تقفون خارجاً ، وتقرعون الباب قائلين يارب يارب إفتح لنا . يجيب و يقول لكم لا أعرفكم ... متى رأيتم إبراهيم وإسحق و يعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله ، وأنتم مطرحون خارجاً ... » (لو١٣ : ٢٤-٢٨) .

هذه هى قصة الملح الذى يُطرح خارجاً .

الذى يقول الرب عنه فى الإنجيل (لمعلمنا لوقا البشير) : « الملح جيد . ولكن إذا فسد الملح ، فبماذا يُصلح . لا يصلح لأرض ولا لمزبلة . فيطرحونه خارجاً . مَنْ له أذنان للسمع فليسمع » (لو١٤ : ٣٤، ٣٥) .

فليضئ نوركم قدام الناس

قال الرب : « لا يمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال ، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين فى البيت . فليضء نوركم هكذا قدام الناس ، لكى يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » (مت ٥ : ١٤-١٦) .

مدينة ومصباح :

لعل الرب يتكلم هنا عن الفرد وعن الكنيسة . وكيف أن كليهما مصدر نور للمجتمع والعالم .

فيشبه الفرد أو الراعي بالمصباح . ويشبه الكنيسة بالمدينة .

وهو قد منحنا النور ، لكى يظهر للناس ، فيستضيئون به ، ويرشدهم إلى الله . وهكذا قال لليهود عن يوحنا المعمدان : « ... كان هو السراج الموقد المنير. وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة » (يو ٥ : ٣٥) . فالإنسان المؤمن هو سراج أو مصباح ، يضيء لكل مَنْ فى البيت .

والمصباح يشير إلى وصية الله ، أو مَنْ يحملها إلى الناس :

قيل فى المزمور : « وصية الرب مضيئة تنير العينين عن بعد » (مز ١٩) . وأيضاً : « سراج لرجلىَّ كلامك ونورٌ لسبيلى » (مز ١١٩) . فكلام الله ينير الطريق الروحى أمام الناس .

لذلك نحن نوقد الشموع حينما نقرأ الإنجيل فى الكنيسة ، إشارة إلى كلمة الله المضيئة . كما نستقبل الآباء الأساقفة بالشموع ، لأنهم الذين يحملون إلينا النور، أو لأنهم هم أنفسهم نور...

وبالمثل نضع الشموع أمام أيقونات القديسين ، لنفس الغرض .

ونفس التشبيه بالنسبة إلى الرعاة وإلى الكنيسة نجده فى سفر الرؤيا ، حيث يشبه الكنائس بسبع منائر من ذهب ، ويشبه رعاتها بسبعة كواكب فى يمين الرب (رؤ١ : ٢٠) . فالكنيسة نور ، ورعاتها نور . والكنيسة من خلال رعاتها تحمل النور إلى الناس .

هي إذن نور ، وحاملة نور .

والكنيسة كجماعة مؤمنين ـــ أو كجامعة للمؤمنين ـــ يمكن أن تُسمى مدينة ، كما قيل عن « المدينة المقدسة أورشليم الجديدة النازلة من السماء كعروس مزينة لرجلها » (رؤ٢١ : ٢) . هذه قال عنها يوحنا الرائى : « والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ، لأن مجد الله قد أنارها ، والحمل هو سراجها » (رؤ٢١ : ٢٣) .

كل مَنْ هو منير ، يمكنه أن يدخل المدينة المنيرة أورشليم .

« ولن يدخلها دنس ، ولا ما يصنع رجساً » (رؤ ٢١ : ٢٧) ، لأن هؤلاء ظلمة . وقد « أحبوا الظلمة أكثر من النور ، لأن أعمالهم شريرة » (يو٣ : ١٩) .

هذه الأنوار التى أرسلها الله إلى العالم ، لا يجوز أن تُخفى ، وأحياناً لا يمكن أن تخفى .

لا يمكن أن تُخفى

المدينة الكائنة على جبل ، لا يمكن أن تُخفى .

يمكن للمستويات الضعيفة أن تُخفى ، أو على الأقل لا يراها الكل . أما هؤلاء الذين رفعتهم النعمة إلى القمة ، فلا يمكن لأية قوة أن تُخفيهم . مثال ذلك بولس الرسول ، الذى حاربوه بكل قوة . ولكن نوره ظل ظاهراً للكل . وكذلك الرسل الذين قال لهم رؤساء الكهنة : « أما أوصيناكم وصية أن لا تعلّموا بهذا الاسم . وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم ، وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان » (أع ٥ : ٢٨) .

كم من مصابيح أراد الناس أن يخفوها تحت مكيال . وكان الله يرفع المكيال ليظهر نورها .

أرادوا أن يخفوها بعدم أعطائها فرصة للظهور ، أو باضطهادها ، أو باشاعة المذمة عنها . ألم يقولوا عن السيد المسيح إنه خاطىء لأنه يصنع المعجزات فى يوم سبت (يو٩ : ٢٤) . ألم يقولوا إنه ببعلزبول يُخرج الشياطين (مت ١٢ : ٢٧) وأنه سامرى وبه شيطان (يو٨ : ٤٨) وانه أكول وشريب خمر ومحب للعشارين والخطاة (مت ١١ : ١٩) . ولكن كل هذه المكاييل لم تستطع أن تُخفى نور المسيح .

كم مكيال حاولوا أن يخفوا به نور القديس أثناسيوس .

كم تهمة ظالمة وجهوها إليه ؟ كم مجمع عقدوه ضده ؟ كم مرة نفوه عن كرسيه . ومع ذلك بقى أثناسيوس كما هو. نور تعاليمه يضىء المسكونة كلها كبطل للإيمان ...

كم من أناس : كلما يرون مصباحاً مضيئاً ، يحاولون إخفاءه بمكيال ...

إن الشر يعمل ضد الخير و يقاومه . والشيطان يحسد أولاد الله ، ولا يريدهم أن يكونوا نوراً للعالم ، لأنه هو نفسه ظلمة ، بل هو أيضاً سلطان الظلام (لو٢٢ : ٥٣) .

لذلك يثير الشيطان عليهم أعوانه الأشرار .

يقاومونهم عن حسد أو غيرة ، أو عن كراهية للملكوت ، أو عن فهم خاطىء ... أو لشهوة أولئك الأشرار فى الظهور. أو لأن نور الأبرار يكشف شرّهم . أو بسبب مقارنة الناس بين هؤلاء وأولئك ... أو للصراع الطبيعى القائم بين ملكوت الله ومملكة إبليس ...

وقد تصل رغبة الإخفاء إلى محاولة القتل .

وهنا يتحول الإخفاء إلى إطفاء . والعمل بكل الجهد لإسكات الصوت الناطق بالحق . وهذا ما فعله هيرودس مع يوحنا المعمدان ، لأن نور يوحنا كان يكشف خطيئته و يبكتها ... (مت ١٤ : ٣-٥) .

وهكذا أرادت إيزابل أن تعمل مع إيليا النبى (١ مل ١٩ : ١ ، ٢) . ونفس الوضع أرادته الإمبراطورة بالنسبة إلى القديس يوحنا ذهبى الفم الذى كان يبكت أعمالها .

وقد يكون المكيال هو الإهمال وعدم التقدير .

وذلك بدفن المواهب وعدم إستخدامها . وحتى الأنوار التى يحدث لها هذا ، يدبر

الله لها مجالات أخرى تظهر فيها ، بعيداً عن الجو الرسمى . وكم رأينا أشخاصاً أدوا خدمات عظيمة ، ولم تكن لهم أية صفة رسمية ... والسيد المسيح نفسه كان النور الحقيقى ، ولم تكن له فى فترة تجسده على الأرض أية وظيفة رسمية .

واجبنا هو أننا لا نعرقل خدمة غيرنا ، ولا نحاول أن نُخفى نوره تحت مكيال ...

وقد تأتى العرقلة عن طريق التنافس :

وعجيب أن بناء الملكوت يوجد فيه تنافس ، يعرقل فيه الخدام عمل بعضهم البعض . وقد توجد بينهم حروب ، ويضع كل منهما مكيالاً على عمل غيره . بينما مجال الخدمة يتسع للكل . بل « الحصاد كثير والفعلة قليلون » (مت ٩ : ٣٧) .

ولكنها محبة الذات التى تضع مكيالاً على مصباح غيرها .

إنها لا تنظر إلى الملكوت وإنتشاره ، وإنما تنظر إلى (الأنا) . تريد أن تظهر هى فى محيط الخدمة ، وهى وحدها تنير ، ويختفى الآخرون لتبقى وحدها فى الصورة !!

وعكس ذلك أيضاً ، مكيال آخر ضد الذات .

وهو إخفاء النور بحجة إنكار الذات . وسنشرح هذا الأمر إن شاء الله ، ونبدأ بقول الرب :

يرى الناس أعمالكم :

قال : « يرى الناس » ولم يقل يسمعون .

ذلك لأنه ما أسهل أن يقول الإنسان كلاماً طيباً ، بينما داخله غير ذلك . وقد تسمع منه عبارات إتضاع عجيبة ، يقول بها إنه لا يستحق شيئاً ، وإنه أكثر الناس خطية ... بينما لو إمتحنته بتصرف معين ، يثور ولا يحتمل ! وهنا أتذكر قول ذلك الأديب الروحى :

هناك أشخاص يحدثونك عن السحب ، وهم يتمرغون فى الأوحال .

لذلك حسناً قال الرب : « يرى الناس أعمالكم » ولم يقل : « يسمع الناس أقوالكم » . فالكتبة والفريسيون كانت أعمالهم تختلف تماماً عن أقوالهم . يتحدثون عن مثاليات خيالية ، لا يستطيعون هم ممارساتها « يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ،

ويضعونها على أكتاف الناس . وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم » (مت ٢٣ : ٤) .

فرق كبير بين أن تقول لى إنك تحبنى ، وبين أن أحسّ بنفسى هذا الحب وأراه فى كل تفاصيل معاملتك . ولذلك ما أعمق قول القديس يوحنا الرسول :

« لا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق » (١ يو ٣ : ١٨) .

الدين ليس هو مجرد كلام ، ولا حفظ آيات ، ولا إلقاء عظات ، إنما هو روح وحياة . والناس ينيرون بحياتهم أكثر مما ينيرون بأقوالهم . بل إن البعض لا تُقبل أقوالهم ، لأن أعمالهم تقف سداً منيعاً ضد قبولها .

والإنسان الروحى لا توجد مسافة بين أقواله وأفعاله ...

بل أقواله هى تعبير عن أعماله . وأعماله هى تنفيذ عملى لأقواله . والإثنان متجانسان . المهم أن تكون له أعمال حسنة ، يحسها جميع الناس .

هنا و يصادفنا سؤال خطير وهو :

كيف تتفق رؤية الناس ، مع فضيلة التواضع ووجوب إخفاء الفضائل ؟

الرؤية والإخفاء :

يشرح الرب بتفاصيل كثيرة أهمية إخفاء الفضائل ، و يقول :

« وأبوك الذى يرى فى الخفاء ، هو يجازيك علانية » (مت ٦ : ٤ ، ٦، ١٨) .

و يقول عن الأشخاص الذين يظهرون فضائلهم : « الحق أقول لكم إنهم قد إستوفوا أجرهم » (مت ٦ : ٢ ، ٥) و يضرب لذلك أمثلة فى الصدقة والصلاة والصوم .

فكيف نجمع بين هذا المعنى ، وبين قوله : « فليضىء نوركم هكذا قدام الناس ، لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » (مت ٥ : ١٦) .

والإجابة على هذا السؤال تتركز فى نقطتين :

١ ـ هناك فضائل لا يمكن إخفاؤها ..

٢ ـ هناك فرق بين أن يرى الناس ، وبين أنك تعمل الفضيلة بهدف أن يروا ...

فأنت يمكنك أن تخفي صلاتك وصومك وصدقتك (مت ٦) . ولكن أتستطيع أن تخفي صدقك وأمانتك ولطفك في التعامل مع الكل ؟! أتستطيع أن تخفي أسلوبك السلس وألفاظك المنتقاة ، التي لا عيب فيها ولا خشونة ولا جرح لأي إنسان ، ولا مساس بشعوره ؟!

هناك أشياء لا يمكن أن تُخفي : منها طباعك وأدبك وشخصيتك وحكمتك وشكلك وحشمتك . هذه يراها الناس ، بدون أن تحاول أنت أن تريهم إياها .

أنت تريد أن تخفي وداعتك وتواضعك . حسناً تفعل . ولكن أتراك تستطيع أن تخفي ملامحك الوديعة الهادئة ؟! أو تستطيع أن تخفي إبتسامتك العذبة السمحة ، ووجهك البشوش في مقابلة الكل ، وصوتك الرقيق المملوء سلاماً ..؟! وهل تستطيع أن تخفي إحتمالك للأذى وعدم ردك بالمثل على المسيئين إليك ؟!

أتستطيع أن تبطل العمل الصالح ، خوفاً من أن يراه الناس ؟! أم إنك تعمل الصلاح ، ولكن لا يكون هدفك منه أن يراك الناس ويمدحوك .

كل ما تستطيعه أن يكون قلبك نقياً من الداخل ، لا تطلب فيه مديح الناس . وأن تعمل في الخفاء على قدر ما تستطيع ، وفي المجال المتاح للإخفاء . وأيضاً لا تتحدث عن أعمالك الصالحة أمام الآخرين ... ولكن :

قد لا تتحدث أنت عن نفسك . ولكن أعمالك تتحدث عنك وأنت صامت ...

بل تتحدث أيضاً عن الإله الذي تعبده ، وعن الدين الذي تؤمن به .. كما تتحدث السموات عن مجد الله ، والفلك يخبر بعمل يديه (مز١٩ : ١) في صمت كامل ، أو في صمت متكلم ...

لاحظ أيضاً أن الرب لم يقل : « لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوكم » بل « لكي يروا ... ويمجدوا أباكم الذي في السموات » إذن :

يعمل لتمجيد الآب :

المفروض أن كل عمل تعمله ، إنما تعمله لأجل مجد الله ، وليس لمجدك

الشخصى . وأنت فى ذلك تقول مع المرتل :

« ليس لنا يا رب ليس لنا . لكن لاسمك القدوس اعط مجداً »
(مز ١١٥ : ١)

أما بالنسبة إلى نفسك فتقول كما قال السيد المسيح : « مجداً من الناس لست أقبل » (يو ٥ : ٤١) . وكل ما تعمله يكون من أجل الله وملكوته . تقول عن الرب كما قال المعمدان : « ينبغى أن ذاك يزيد ، وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) .

أعمالك الحسنة ، يكفيك أن الله يراها . أما إن رآها الناس ، فليكن ذلك من أجل مجد الله .

إن المدينة الكائنة على جبل ، يراها الناس دون أن تشير إلى ذاتها . ويمجدون الله بسببها ، إذ منحها هذا العلو .

أعمالك تمجد الله من الناحيتين : الإيمانية والسلوكية .

يمجدون الله ، إذ يرون فيك صورة الله ، وإذ يرون فيك سمو المسيحية . ويدركون أن وصايا الله السامية يمكن تنفيذها عملياً .

يمجدون الله الذى عملت نعمته فيك ، وأوصلتك إلى هذه الدرجة من الروحانية ، كما يمجدون الله على هذا الإيمان الذى وهبك إياه .

يمجدون الله حينما يعلمون أن الأعمال الصالحة التى تعملها ، لست تعملها بذراعك البشرى ، إنما بعمل الله فيك ، وإرشاد روح الله لك . فالأمر راجع له تبارك اسمه فى كل شيء .

وإذ يمجدون الله على كل هذا ، تملكهم الغيرة للسير فى نفس الطريق .

وهكذا يتمجد الله فيهم ، وفى إنتشار ملكوته بينهم ، عن طريق إعجابهم بأعمالك الصالحة ، التى عملها الله فيك وبك .

لذلك فى كل ما تعمل ، إظهر دور الله فى عملك .

بدلاً من أن تعطى فقيراً وتقول له : [خذ هذا المبلغ] ... الأفضل أن تقول له : [خذ . لقد أرسل لك الله هذا المبلغ] . وبدلاً من أن تقول : [أخيراً أمكننا حل هذه المشكلة] ... قل : [لقد تدخل الله فى المشكلة ، وأعاننا على حلها أخيراً] ... وهكذا

فى كل ما تعمله بالجسد وبالروح ، تذكر قول الرسول :

« مجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم ، التى هى لله » (١ كو ٦ : ٢٠)

واعلم أن الله الذى تمجده ، ليس هو غريباً عليك ، بل هو أبوك الذى فى السموات .

إن قول الرب : « فليضىء نوركم » يحمل أمراً إلهياً :

أمر للنور أن يضىء ، وأمر لكل مكيال أن يبتعد عن النور لكى لا يخفيه .

ومعنى هذا ، أن مشيئة الله أن يبقى هذا النور مضيئاً قدام الناس ، ليروا أعمالكم الحسنة ، فيمجدوا أباكم الذى فى السموات .

وكما قال الله فى القديم : « ليكن نور » فكان نور (تك ١ : ٣) ، كذلك يقول الآن : « فليضىء نوركم قدام الناس » ، فيضىء هذا النور قدام الناس . إن كلمة الله لا ترجع إليه فارغة (إش ٥٥ : ١) .

وإن كان الله يتكلم على لسانك ، فسوف ينطبق عليك قول الكتاب : « كانت كلمة الرب تنمو » (أع ٦ : ٧) .

إن الله يحب النور . وقد قال عن نفسه : « أنا قد جئت نوراً إلى العالم ، حتى كل مَنْ يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة » (يو١٢ : ٤٦) .

وكما خلق أنواراً مادية تضىء العالم المادى ، كالشمس والقمر والنجوم والكواكب ، كذلك أراد أن توجد أنوار روحية تنير الطريق أمام الناس . فاطمئنوا كأنوار لا يمكن أن تخفى ، بل يرى الناس أعمالكم ...

أبوكم السماوى :

فى العظة على الجبل ، ركز السيد السميح ، على علاقة الله بالبشر كأب . وهو أمر ورد ذكره فى العهد القديم بطريقة عابرة . ولكن الرب هنا ركز عليه جداً .

وتكررت عبارة الأب السماوى مرات عديدة فى العظة على الجبل .

فأنت تعمل الخير ، ليتمجد أبوك الذى فى السموات (٥ : ١٦) .

وأنت تصلى وتقول : « أبانا الذى فى السموات » (٦ : ٩) .

وتعمل الفضيلة فى الخفاء ، وأبوك يجازيك علانية (٦ : ٤) .

وتسعى للكمال ، كما أن أباك الذى فى السموات هو كامل (٥ : ٤٨) .

وأنت تغفر للناس ، لكى يغفر لك أبوك السماوى (٦ : ١٤) .

وأنت لا تهتم بما تأكل وما تشرب ، لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها (٦ : ٣٢) .

وانظروا إلى طيور السماء . أبوكم السماوى يقوتها (٦ : ٢٦) .

أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه (٧ : ١١) .

والكلام فى العظة على الجبل عن الآب السماوى ، هو باكورة لتعليم الرب عن هذا الموضوع فى الإنجيل كله ...

الملكوت والسماء :

وكما ترد عبارة « أبوكم السماوى » كثيراً فى العظة على الجبل ، وفى باقى الإنجيل ، كذلك ترد كثيراً عبارات : الملكوت ، والسماء ، وملكوت السموات ...

إن الرب يريد أن يركز الناس أفكارهم فى السماء وفى الملكوت .

فى أول العظة عن ملكوت السموات فيقول : « طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات » (٥ : ٣) . والسيد المسيح حينما بدأ رسالته ، قيل عنه إنه كان : « يكرز ببشارة الملكوت » (مت ٤ : ٢٣) . وتكررت هذه العبارة (مت ٩ :

٣٥) وستستمر إلى نهاية العالم « يُكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ، ثم يأتى المنتهى » (مت ٢٤ : ١٤) .

والمؤمنون بالرب هو بنو الملكوت (مت ١٣ : ٣٨) ، هؤلاء هم الأ برار الذين سيضيئون كالشمس فى ملكوت أبيهم » (مت ١٣ : ٤٣) ، و يرثون الملكوت المعد لهم منذ تأسيس العالم (مت ٢٥ : ٣٤) .

مَنْ له أذنان للسمع فليسمع ...

فهرســــــت

صــفحة

قصة هذا الكتاب ٥
مقدمة ــ الجبل ٧
فتح فاه ١٠
ملاحظات على محتويات العظة ١١

طوبى للمساكين بالروح ١٣

التطويبات ١٣
المسكنة بالروح ١٤
مقاييس المسكنة ١٧
مسكين أمام نفسه ١٩
مسكين أمام الناس ٢١
مسكين أمام الله ٢٦
لأن لهم ملكوت السموات ٢٨

طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ٣٢

ما يشجع على البكاء وما يمنعه ٣٨

طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ٤٣

مَنْ هم الودعاء ؟ ٤٣
الوداعة والغيرة المقدسة ٤٩
ما هى الأرض ٥٠

طوبى للجياع والعطاش إلى البر ٥٢

معنى الجياع والعطاش إلى البر ٥٢
حياة الحب الإلهى ٥٤
الجوع والعطش إلى الصلاة ٥٧
لأنهم يشبعون ٦٠

طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ٦١

الرحمة من صفات الله ٦١
الرحمة وأهيمتها ٦٣
القسوة ٦٧
مَنْ الذين يرحمهم ٦٨

طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ٧٣

مكافأة عظيمة ٧٣
ليس الكل يعاينون الله ٧٣
العقل والبساطة والضيقات ٧٥
رؤية الله فى الأ بدية ٧٦
نقاوة القلب ٧٦

طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ٨١

معنى صانعى السلام ٨١
السلام بين الله والناس ٨٢
السلام بين الناس ٨٤
السلام الداخلى ٨٧

طوبى للمطرودين لأجل البر ٨٨

أمثلة لمشاكل الأشرار ٩٤

أمثلة لقديسين أضطهدوا وطردوا ٩٨

إفرحوا وتهللوا ١٠٣

أنتم ملح الأرض . أنتم نور العالم ١٠٤

تسلسل عجيب ١٠٤

أنتم ملح الأرض ١٠٥

رسالة القدوة ١٠٦

قدوة حتى بعد الوفاة ١٠٩

لماذا الملح والنور ١١١

كلمات المديح ١١٢

أهمية الملح ١١٣

الملح والنور ١١٧

الله يسمينا باسمه ١٢٠

إذا فسد الملح ١٢٣

يداس من الناس ١٢٦

يُطرح خارجاً ١٢٩

فليضىء نوركم قدام الناس ١٣٢

مدينة ومصباح ١٣٢

لا يمكن أن تخفى ١٣٣

يرى الناس أعمالكم ١٣٥

الرؤية والإخفاء ١٣٦

نعمل لتمجيد الآب ١٣٧

أبوكم السماوى ١٣٩